السبت 2 أيلول 2023
العدد 5000 السنة الثامنة عشرة
Samedi 2 Septembre 2023 nº 5000 18ème année

24 صفحة
50000 ليرة

الأخبار
al-akhbar

www.al-akhbar.com

كلمات

ميشال فوكو
الفلسفة نبيّة اللحظة

محاضر اجتماعات «العرب - سوريا»: أعطونا بالتفاوض ما لم نأخذه بالحرب [6]

زيادة ضريبة القيمة المضافة إلى 12٪

موازنة 2024: الضرائب والرسوم بالدولار [2]

اللامركزية لا تنهي عيوب المركز

[4 ـ 5]

(هيثم الموسوي)

قضية

«بريكس» ما بعد التوسّع

8

الحدث

إردوغان يلتقي بوتين... أخيراً
أنقرة تستعجل استرضاء موسكو

8

البلاد

تطورات الضفّة
نحو فهم أدقّ للمُستعمَرة وأدواتها

12

الإرهاب الصهيوني ضد يهود العراق: كنّا نعلم!

14

قضية اليوم

موازنة 2024: تحصيل الضرائب والرسوم بالدولار الفريش

محمد وهبة

يتّجه مشروع موازنة 2024 نحو دولرة الإيرادات وتحصيلها بالدولار الفريش، ويتضمّن استحداثاً لضرائب جديدة، بعجز يصل إلى 13,8%. قد يؤمّن هذا الأمر للخزينة إيرادات بالعملة الأجنبية، إنما تكمن خطورته في أنه يلغي العملة اللبنانية لتصبح البلاد كلّها مرتبطة أكثر بالدولار. اقتصاد كهذا يتطلب دفقاً متواصلاً بالنقد الأجنبي في ظل اقتصاد يعتمد بشكل مفرط على الاستيراد. ولم يعد لبنان رهينة التدفّقات، إنما سيكون رهينة الدولار. بلغت قيمة الإيرادات في مشروع موازنة 2024 نحو 300,5 تريليون ليرة (3,3 مليارات دولار)، مقابل نفقات بقيمة 258,7 تريليون ليرة (2,9 مليار دولار)، أي إن العجز يبلغ 41,6 تريليون ليرة. وبحسب تقديرات صندوق النقد الدولي، فإن الناتج المحلي الإجمالي سيبلغ في عام 2024 نحو 18,2 مليار دولار، وبالتالي فإن النفقات العامة ستمثّل 18,1% من الناتج، مقارنة مع 16,6% في السنة الماضية. أول الإجرام في هذا المشروع أنه يرفع ضريبة القيمة المضافة إلى 12% ابتداءً من أول كانون الثاني 2024. وثانيها، أنه يكرّس استيفاء الرشى في الإدارة العامة ويستحدث ما أسماه «بدل خدمات سريعة وطارئة» لإنجاز المعاملات في اليوم ذاته أو خلال ثلاثة أيام ليتم توزيع قيمة المبالغ المحصّلة من هذا الرسم على موظفي الإدارة المختصّين، وإدارة أخرى، و20% للخزينة. هذا الرسم يعني أن القوى السياسية ترفض تصحيح الأجور، وستقوم بتشريع الرشوى بدلاً من ذلك. وبموجب هذه الموازنة، سيتم تشريع استيفاء الرسوم والبدلات بالعملة الأجنبية بعدما كانت الليرة هي العملة الرسمية الوحيدة في غالبية تعاملات الدولة مع المكلّفين بالضريبة، بشرط أن يحدّد مصرف لبنان «التسعيرة»، أي سعر الصرف. هذا الأمر سيكون إلزامياً بالدولار النقدي للرسوم والضرائب الآتية:

- الحصص والأرباح التي تعود للدولة اللبنانية من استخراج النفط ومشتقاته وبيعه، وإيرادات ألعاب الكازينو بالعملة الأجنبية، وحصة الدولة من الشراكات مع القطاع الخاصة.
- الضريبة المتوجّبة بموجب أحكام المادة 51 من القانون 497، أي القانون المتعلق بتسديد ضريبة الفوائد.
- الضريبة المتوجّبة على إيرادات رؤوس الأموال المنقولة الأجنبية.
- الضرائب والرسوم المتوجّبة على الشركات صاحبة الحقوق البترولية والشركات صاحبة الحقوق البترولية المشغّلة.
- رسوم المغادرة عن المسافرين بحراً وجواً بالدولار الأميركي.
- الرسوم القنصلية.
- الرسوم الجمركية.
- رسم الاستهلاك الداخلي عند الاستيراد.
- الرسوم التي تستوفيها مؤسسة كهرباء لبنان.
- رسوم المطارات.
- الضريبة على القيمة المضافة المتوجّبة على رسوم المطارات.
- كلّ الرسوم المرفئية....
- الضريبة على القيمة المضافة التي سدّدها السائح لأصحاب المحال المتعاقدة مع وزارة المالية عن مشترياته داخل الأراضي اللبنانية ويطلب استردادها وفقاً للأحكام الخاصة باسترداد الضريبة.
- رسوم الإقامة لحاملي إجازات العمل من كلّ الفئات، بمن فيهم الفنانون والموسيقيون وبطاقات الفنانون والموسيقيون وبطاقات الإقامة، وغيرها من الرسوم والسمات والغرامات التي تستوفيها المديرية العامة للأمن العام التي يُحدّد استيفاؤها بالدولار الأميركي بموجب مرسوم يُتخذ في مجلس الوزراء.

أما الأجور المدفوعة بالدولار، فيات يترتّب على صاحب العمل أن يدفع الضريبة المترتّبة عليها بالعملة نفسها المدفوعة للأجير. وفيما وردت في الموازنة تعديلات على ضرائب قائمة تتعلق ببراءات الاختراع والأثر الأدبي وعلى رسوم ومكوس المداخيل المفروضة على المركبات التجارية والملكيات الفكرية والصناعية والأدبية والفنية والتجارية، أي زيادة قيمة الضريبة تماشياً مع ما حصل في مشروع موازنة 2023 الذي زاد الضرائب وضاعفها مرات عدّة... تمّ استحداث ضرائب جديدة لم تكن موجودة سابقاً، مثل رسم لكل طلب إذن مزاولة مهنة الهندسة، ورسوم للمراجعات والطلبات الخاصة، ورسم لكل طلب اعتراف بدراسة أو شهادة جامعية ومعادلتها. كذلك استُحدث رسم طابع مالي لكل طلب تقدّمه مؤسسة خاصة للتعليم العالي للنظر في مسار دراسي أو تحويل موادّ... وطابع مالي مقابل صور الشهادات والإفادات أو أي مستند يحتاج إليه طلب الكولوكيوم أو طلب الاعتراف بالشهادات والدراسات الجامعية... وفيما يتواصل استحداث الرسوم والضرائب على التعليم، مُنح القضاة رسماً مقطوعاً عن كل دعاوى تفريق وطلاق وخلع وإثبات زواج وسواها.

أغرب وأبرز ما ورد من ضرائب في مشروع الموازنة هذا، هو رسوم الاستهلاك للحفاظ على البيئة. فقد أضيفت جداول تتضمّن غالبية السلع التي يستوردها لبنان من الخارج، وفُرضت عليها ضريبة جماعية تبدأ بنسبة 0,10% من قيمة الاستيراد وتصل إلى 0,40%. بموجب هذه الزيادات، ستتضاعف قيمة الرسوم الداخلية على السلع والخدمات، وقيمة حاصلات ضريبة الأملاك، وحاصلات الإدارات والمؤسسات العامة، وضرائب الدخل والأرباح. ستزداد قيمة حاصلات ضريبة القيمة المضافة من 36 تريليون إلى 90 تريليون ليرة. طبعاً هذه الموازنة لم تعترف بعد بأن عليها ديوناً لحاملي سندات اليوروبوند لتدرّجها ضمن الموازنة، وترفض الإقرار بأن عليها خسائر ستتحمّلها بنتيجة إعادة هيكلة مصرف لبنان، وأن الوعاء الاقتصادي الذي تُفرض فيه هذه الضرائب والرسوم صار ضيّقاً على الآخر ويعتمد بشكل أساسي على مداخيل آتية من الخارج، سواء على شكل تحويلات مغتربين أو مساعدات من منظّمات وأحزاب ودول.

(هيثم الموسوي)

> أول الإجرام في هذا المشروع انه يرفع ضريبة القيمة المضافة إلى 12%

تقرير

محاولة «سيادية» لتوريط «نواب السُّنّة»

ندى أيوب

يكثّف «السياديون» ممن يُطلقون على أنفسهم تسمية «قوى المعارضة» اتصالاتهم بقوى سياسية ونيابية وسطية لاستمالتها في وجه حزب الله. وتنصبّ مساعي هؤلاء على توسيع «جبهتهم» السياسية المكوّنة من 31 نائباً، غالبيتهم من المسيحيين، بتقدّمهم حزبا القوات والكتائب، إلى جانب عدد من النواب «المستقلّين»، في محاولة لضمّ شخصيات سُنية إلى هذه «الجبهة»، عشية عودة الموفد الرئاسي الفرنسي جان إيف لودريان إلى بيروت، وعلى وقع الحوار بين الحزب والتيار الوطني الحرّ، ما وضع «المعارضة» في حالة تَرقّب.

وفي هذا السياق، عُقد الأربعاء الماضي، بطلب من قوى «المعارضة»، لقاء نيابي في مكتب النائب نبيل بدر في بيروت، بين وفد من نواب «المعارضة» ضمّ غسان حاصباني، مارك ضو، الياس حنكش، وضاح الصادق وميشال معوض، ووفد من نواب تكتّل «اللقاء النيابي المستقل» ضم إلى بدر، النواب عماد الحوت، نعمت افرام، سجيع عطية، أحمد الخير، محمد سليمان وجميل عبود. ودار النقاش حول الاستحقاق الرئاسي والحراك الإقليمي ممثلاً بـ«اللقاء الخماسي» وزيارة لودريان المرتقبة منتصف أيلول الجاري، إلى الموقف من تشريع الضرورة وعمل حكومة تصريف الأعمال.

وفي محاولة لـ«كسر حيادية» النواب السُّنة العشرة الذين يشكّلون «اللقاء النيابي المستقل»، ركّز وفد «المعارضة» على ثوابت تجمعه والنواب «اللقاء» كتطبيق اتفاق «الطائف» واحترام السيادة الوطنية والدستور والمطالبة بتطبيق المهل وتطبيق القرارات الدولية المرتبطة بلبنان، وضرورة توطيد علاقات لبنان بمحيطه العربي وتحديداً دول الخليج. والهدف، بحسب معنيين، «الإيحاء بأنّ بين النواب السُّنة وقوى المعارضة الكثير من المشتركات التي يُبنى عليها، وتسمح بتموضع الطرفين في الخندق ذاته». وبصريح العبارة وصْف وفد «المعارضة» مواقف النواب السُّنة «الحيادية» في جلسات الانتخاب الرئاسية الـ12، بـ«أنّها تفسّر تعاطفاً مع حزب الله وحلفائه، ويتوجّب الوقوف في صفّ المعارضة»، وذلك، على خلفيّة عدم اقتراع هؤلاء لمصلحة مرشّحَي «المعارضة» ميشال معوّض وجهاد أزعور، رغم أنّهم حجبوا أصواتهم عن رئيس تيار «المردة» سليمان فرنجية. وهو أسلوب ابتزازي، سبق أن استخدمته قوى في «المعارضة» بوجه قلّة من نواب «التغيير» عشية جلسة 14 حزيران الرئاسية، لإجبارهم على التصويت لأزعور.

التواصل بين الجانبين قائم منذ فترة، إلا أنّ هذا الاجتماع كان «الأكثر جدّية»، وعرض خلاله كل فريق تصوّره للمرحلة وإدارتها. قال «المعارضة» لم تبدّل موقفها الرافض للحوار، بل «تجهد لعلّها تحصل على مساندة النواب السُّنة في عرقلة تشكيل أي طاولة يكون الحزب شريكاً فيها»، ظناً أنّها تقطع الطريق على وصول فرنجية إلى سدّة الرئاسة. ومصادرها، تتحدّث عن «محاولة لجمع أكبر عدد من القوى والطاقات لإيجاد بدائل من المطروح في الملف الرئاسي». لكن خلق التوازن، بشِقّيه العددي والطائفي، الذي تسعى «المعارضة» لتحقيقه، عبر جذب النواب السُّنة إلى صفّها، لا يبدو أنّه بالمهمة السهلة، أقلّه حتى اللحظة. فمن جهته، ثبّت «اللقاء النيابي المستقل» خلال الاجتماع مجموع نقاط تقول مصادره إنّه «لا حياد عنها»، كضرورة الحوار بين كلّ مكوّنات البلد، حتى من دون انتظار رعاية خارجية، بشرط احتكامه لسقف «الطائف»، وهي النقطة المحورية التي لم تتوافق مع أهواء «المعارضة»، إلى جانب تأييد «اللقاء» لتشريع الضرورة، واستمرار عمل حكومة تصريف الأعمال في تسيير شؤون الناس. كما أكّد النواب السُّنة أنّهم لن ينسحبوا من أيّ جلسة لانتخاب رئيس للجمهورية، ويؤيّدون الجلسات المتتالية، وانتخاب رئيس يحظى بتوافق وطني. ويعوّل هؤلاء على لعب دور وسطي يدعم التلاقي وكسر الانقسام السياسي العمودي الحاصل.

وقرّر الحاضرون إبقاء لقاءاتهم مفتوحة عبر لجنة مؤلّفة من النواب الخير وبدر وحاصباني والصادق.

في الواجهة

باسيل
إمّا المكاسب أو نذهب إلى مرشّح ثالث

في 31 آب 2022، في ذكرى تغييب الإمام موسى الصدر، حدّد الرئيس نبيه برّي مواصفات الرئيس المقبل للجمهورية. يومذاك، كان الأول في المهلة الدستورية لانتخابه. في الذكرى نفسها التالية الخميس، استكمل برّي العرض الأول: آلية سياسية للاستحقاق الدستوري المعطّل

نقولا ناصيف

طوال السنة المنصرمة، منذ بدأت المهلة الدستورية لانتخاب الرئيس، تعذّر التوافق على مواصفاته كما طرحها رئيس البرلمان نبيه برّي، أو طرح ما يماثلها حزب الله، أو طرح ما يشبهها قليلاً أو لا يشبهها أيضاً، إن لم يكن نقيضها. أفرقاء موزّعون على الحزب التقدمي الاشتراكي والتيار الوطني الحر وحزب القوات اللبنانية وسواهم. إلى اليوم يدور انتخاب الرئيس من حول النقطة الصفر نفسها: المواصفات المتنافرة. في المبادرة الأخيرة لبرّي ما يشبه فتوى توفيقية بين وجهتَي نظر متناقضتين لا تلتقيان: أولى يقول بها الثنائي الشيعي ويدافع عنها رئيس المجلس بحماسة هي الذهاب إلى انتخاب الرئيس بعد طاولة حوار، وثانية يقول بها المناوئون للثنائي وهم الفريق المسيحي: انتخاب الرئيس يسبق الحوار الذي يديره هو في ما بعد. اختبرت وجهتَي النظر هاتين 12 جلسة للبرلمان، أولاها كالأخيرة فيها حتى الآن، أظهرت استحالة انتخاب الرئيس في ظل التوازن السياسي القائم في مجلس النواب. أخيراً ظهرت إلى الواجهة وجهة نظر ثالثة نادى بها رئيس التيار الوطني الحر النائب جبران باسيل. خرج على الحلفاء المسيحيين المتقاطع معهم مع أنه لا يزال يقول بتأييده ترشيح الوزير السابق جهاد أزعور، وهو يقترب أكثر فأكثر ممن أوشك أن يعلن طلاقه معه، وهو حزب الله. في حسبان باسيل أن المكسب السياسي الذي ينشده في حواره مع حزب الله أهم من الرئيس. يذهب أمام زواره إلى الأبعد في القول: «أهم من سليمان فرنجية ومن جوزف عون معاً». هو «المكسب المتأخر تحقيقه 33 عاماً». مع أنه لا يقول علناً إن حصوله، قبل جلسة الانتخاب على مكسبَي اللامركزية الإدارية والمالية الموسّعة والصندوق الائتماني في «قانونيْن يصدران عن مجلس النواب ويحملان في القانونين مراسيمهما التطبيقية» سيدفعه إلى الاقتراع لفرنجية، بيد أن المفهوم مما يعنيه أن انتخاب خصمه، إذا انتُخب، لا يجعل منه ذا أهمية: «مكسبا القانونين والموافقة الشفوية على ورقة الأولويات الرئاسية يسهّلان الانتخاب». إلا أنه يضيف: «عندما تُقر اللامركزية الإدارية والمالية الموسعة، ما يكشف عنه أيضاً تبلّغه من حزب الله «عدم ممانعة رئيس المجلس للامركزية الإدارية والمالية الموسّعة بعدما فوتح بها. أي معنى لها من دون موافقته ومن دون موقف شيعي موحّد منها». ما يقوله باسيل أيضاً إن ثمة مساراً ثانياً يحتاج إلى وقت أقل، موازياً للحصول على المكاسب الثلاثة تلك لكنه بديل منها إذا تعذّرت: «نذهب جميعاً إلى مرشح ثالث. لا مرشحنا جهاد أزعور ولا مرشحهم فرنجية، بل ثالث نتفق عليه ليس حتماً جوزف عون ولن يكون». وسواء قوبلت مبادرة برّي برفض مناوئيه لها أو ترحيب حلفائه بها، إلا أنها عكست وجود فوارق غير هامشية وغير ثانوية في المواقف المحوطة بالاستحقاق. بينما يقول رئيس المجلس بحوار يقتصر على بند وحيد أحد هو انتخاب الرئيس، يسهب حزب الله في طلب حوار أوسع يشمل العهد المقبل الذي لا يبصره إلا من خلال مرشحه الوحيد وهو فرنجية. في المقابل يتمسّك الفريق المسيحي بقصر المعضلة على الاستحقاق الدستوري في ذاته والمناداة بجلسات متتالية إلى حين انتخاب الرئيس. وبينما يبدو برّي أكثر المهتمين بالدور الذي يضطلع به الموفد الرئاسي الفرنسي الخاص جان إيف لودريان بجمع الأفرقاء للتحدث في مواصفات الرئيس بداية ومن ثم إسقاطها على الشخصية الأكثر ملاءمة للمرحلة المقبلة، يتصرف حزب الله كما لو أن انتخاب الرئيس بنداً ثانياً بعد أول هو الأوْلى عنده في الوقت الحاضر: الحوار الدائر بينه وبين باسيل. حوار كهذا يدير رئيس المجلس ظهره له اعتقاداً منه بتقدم انتخاب الرئيس على ما عداه من التزامات وتعهدات يمكن الخوض فيها لاحقاً في برنامج الحكم الجديد من جهة، ولا يملك الطرفان اللدودان حزب الله والتيار الوطني الحر بمفردهما إلزام سواهما بما يتفقان عليه، خصوصاً إذا تطلّب دوراً من مجلس النواب. ما تحدّث عنه برّي في ذكرى الإمام الصدر الخميس، سبق أن لمّح إليه أمام زواره أكثر من مرة في الأيام السابقة. توقّعه وصول لودريان إلى بيروت تبعاً لما سمعه منه قبل صدور ردود الفعل السلبية على رسائله أخيراً، ملاقاته الموفد الفرنسي في حصر الحوار بانتخاب الرئيس دونما سواه، تقليص عدد الجالسين إلى طاولة الحوار بما لا يزيد على 15 متحاوراً. ما أضاف إليه برّي أن يبدأ الحوار من حيث استقر الخلاف: لكل من الفريقين أو أكثر اقتراح الاسم الذي يرشحه لانتخابه رئيساً ومحاولة إقناعه الآخر من خلال الاحتكام إلى لودريان، إلى حين الوصول إلى المرشح الأكثر استقطاباً. إلا أنه يحبّذ عندئذ، متى تعذّر الاتفاق على اسم واحد، الذهاب إلى جلسات متتالية. ما رمت إليه مبادرة برّي الذي يتقاطع معه عليها حليفه حزب الله إلا أنها تجد جذورها في ما يطالب به الفريق المسيحي، إبراز الفحوى الحقيقي للمعضلة: «مع أنه استحقاق دستوري ملزم ومقيّد بمهل أُهدرت أكثر من مرة، بيد أن الأفرقاء جميعاً يتعاملون مع جلسة الانتخاب على أنها حساب سياسي أيضاً مرتبط بخيارات الرئيس المقبل في إدارة التوازنات الحالية، المعبَّر عنها مرة بعد أخرى من أفرقاء الانقسام باستحالة تقبّل أحدهما الآخر واعتباره شريكاً في الوطن والدولة. ذلك ما يدفع كلاً منهما على الاعتقاد أنه يخوض، في الاستحقاق الرئاسي، معركة خيارات المرحلة المقبلة والموقع الذي سيكون عليه الرئيس الجديد. كل منهما يريد الرئيس إلى جانبه، ما يشي أنه خصم الفريق الآخر. ذلك ما يفصح عنه الطرفان عندما يتمسك كل منهما برفض مرشح الفريق الآخر، دونما طرح مرشح ثالث يصير إلى التوافق عليه. أضحت المعادلة الحقيقية والوحيدة تقريباً: ما دام فرنجية في المعترك فإن أزعور وقائد الجيش العماد جوزف عون فيه إلى أن يغادروا جميعاً أو يسقط اثنان من الثلاثة. في حسبان باسيل معادلة أخرى: «لا وجود لقائد الجيش في حساباته ولا في حسابات حزب الله». إلى اليوم لم يرسل الثنائي الشيعي إشارة إيجابية أو تلميحاً إلى استعداده التخلي عن فرنجية. لم يرسل الطرف المقابل بدوره إشارة إيجابية أو تلميحاً إلى احتمال القبول بالتفاوض على ترشيح فرنجية. بذلك تدور الدائرة من حول الرجل وحده: لا ترشيحه يقود إلى انتخابه، ولا رفضه يقود إلى انتخاب سواه في ظل إمساك الثنائي الشيعي بالنواب الـ27 ممثلي الطائفة من دونهم يتعذّر انتخاب أي رئيس للجمهورية، لكن معهم تصعب الموافقة على استبعاد الزعيم الزغرتاوي.

مبادرة برّي: آلية سياسية لاستحقاق دستوري (هيثم الموسوي)

> اللامركزية الإدارية والمالية الموسّعة والصندوق الائتماني أهمّ من سليمان فرنجية وجوزف عون

تتقدم عائلة مؤسس جريدة «السفير»
الكاتب الصحافي الراحل
طلال إبراهيم سلمان
وأهالي بلدته شمسطار وأسرة جريدة «السفير»
بجزيل الشكر لكلّ من واساهم في مصابهم الأليم، متمنّين ألا يفجعهم الله بحبيب أو قريب أو مكروه.

على الغلاف

اللامركزية لا تنهي عيوب المركز

اللامركزية، بشكل عام، هي نقل المهام والسلطات من السلطة المركزية إلى السلطات المحلية، الموزّعة على الأقضية في حالة لبنان. تنقسم اللامركزية إلى لامركزية سياسية ومالية وإدارية. المشكلة في لبنان أن العيوب الموجودة في المركز لن تزول عندما تُعتمد اللامركزية الإدارية. بل المرجّح أن تتوزّع هذه العيوب على السلطات المحلية (الفساد، الزبائنية، الطائفية...). والشواهد على هذا الأمر عديدة، إذ يمكن الاستخلاص من بعض الأوراق البحثية، التي تربط تطبيق اللامركزية بارتفاع احتمالات الفساد وانخفاض جودة الخدمات الصحية والتعليمية.

وتشير هذه الأبحاث إلى أن اللامركزية يمكن أن توسّع الهوة بين الفقراء والأغنياء، من خلال تمركز الثروة في المحافظات الملائمة لها، وهو ما يتحدث عنه ريمي برودم في ورقته «مخاطر اللامركزية» التي نشرها البنك الدولي عام 1995. ويكمل برودوم أن النظام اللامركزي، بنقله السلطة إلى السلطات المحلية، على عكس ما هو متصوّر، يقلّل من التجاوب تجاه المقيمين من قبل المسؤولين نتيجة السماح بانتشار الفساد المحلي. وهو ما يمكن استخلاصه من التجربة الإندونيسية، حيث لم يحدّ تطبيق اللامركزية من مشكلة الفساد، لأن النموذج افتقد إلى الأدوات اللازمة للحد من انخراط النخب السياسية في أعمال الفساد. بمعنى آخر، تحتاج اللامركزية إلى أدوات إضافية تصوّب على مشاكل مثل الفساد لتستطيع حلّها، وإلا هي ليست أداة بحد ذاتها لتحارب هذه المشاكل.

في مشروع قانون اللامركزية الإدارية الذي عملت عليه اللجنة التي ترأسها الوزير السابق زياد بارود، والذي يشكّل محور الحوار بين التيار الوطني الحر وحزب الله، تظهر إشكالات في الشق الإداري والمالي، منها ما يتعلق بعدد الأقضية. إضافة إلى صلاحيات مجالس الإدارة في ما يخص «التقاضي»، ما يعني إنشاء جهاز شرطة على مستوى القضاء الذي يُعتبر من عداد الضابطة العدلية، من دون أن يوضح المشروع آلية عمل هذا الجهاز، ومرجعية الأوامر والمهام. وفي موضوع الإقامة تجدر الإشارة إلى أن من يحق لهم الاقتراع في مجالس الأقضية هم المقيّدون في لوائح الناخبين وليس المقيمين، إلا أن القانون يشير إلى أن من يثبت أنه مقيم في نطاق معين ويسدد الرسوم والضرائب البلدية من دون انقطاع لمدة ست سنوات يمكن أن يخص «التقاضي»، ما يعني إنشاء شقّ مالي أيضاً. فكيف تتم عملية جباية ضرائب الدخل وما هي الآلية التي ستُعتمد: هل يُعتمد مركز سكن الأجير أم مكان عمله؟ لأن في لبنان الكثير من الموظفين الذين يتنقّلون بين المناطق إلى أماكن عملهم، ومنهم من يعيش في الأطراف ويقصد العاصمة يومياً، ومنهم من يتنقّل بين الأطراف، ما يوجب توضيح عمليّة جباية الضرائب على دخل هؤلاء وأي قضاء يستفيد منها؟

أمر آخر، يتعلق بحجم واردات الصندوق اللامركزي في ظل الأزمة المالية الحالية؟ إذ بحسب أرقام موازنة عام 2023 تبلغ إيرادات الصندوق اللامركزي نحو 155 مليون دولار، وهو رقم ضئيل نسبة إلى الناتج المحلّي بنسبة نحو 0,9%، في حين أن مشروع بارود يقول إن هذه الإيرادات يجب أن تبلغ 2%، والمعدّل العالمي نحو 3%. وللمقارنة، فقد بلغت ميزانية بلدية بيروت عام 2015 نحو نصف مليار دولار، أي أكثر بـ 3 مرات إيرادات الصندوق اللامركزي المحتملة اليوم، وهي أموال مخصّصة لكل الأقضية. كذلك هنالك مشكلة في المعايير المعتمدة لتوزّع الحصص، اذ يعتمد مشروع بارود على جداول إحصائية بعدد سكان المدن والقرى، استناداً إلى أرقام وزارة الداخلية والبلديات - المديرية العامة للأحوال الشخصية (أيار 2013). وبحسب هذه الأرقام، على سبيل المثال، فإن حصة قضاء دير الأحمر، الذي يبلغ عدد سكانه نحو 67 ألفاً، هي 3%، بينما حصة قضاء طرابلس الذي يبلغ عدد سكانه نحو 354 ألفاً هي 2%. لان مساحة دير الأحمر أكبر. الفكرة هنا هي أن مؤشّر المساحة يأخذ نفس وزن مؤشّر عدد السكّان، وهو أمر يثير تساؤلات حول عدالة هذا التوزيع.

> **تربط أوراق بحثية تطبيق اللامركزية بارتفاع احتمالات الفساد وتراجع جودة الخدمات الصحية والتعليمية**

كما أن المعايير المذكورة في المشروع تعتمد على التنمية الاقتصادية وجباية الضرائب كمؤشّرين يمثّلان 80% من تخصيص حصص الأقضية. فالأقضية التي لا تمتلك نسب جباية مرتفعة تنخفض حصتها من إيرادات الصندوق اللامركزي. ولكن إذا كان الهدف من اللامركزية هو تحسين أوضاع القرى والمدن، لماذا نعتمد معايير تقول إن القضاء الذي يفشل في جباية الضرائب على سبيل المثال تنخفض حصته من مؤشر تحصيل الرسوم، أي من حصته الإجمالية من الصندوق، بدل مساعدته على معالجة أسباب المشكلة ؟

من ناحية أخرى، كيف يمكن أن نعوّل على اللامركزية لحل المشاكل التي يعاني منها لبنان إذا كانت مشاكل بنيوية لا تتعلّق بمركزية النظام الإداري من عدمه. لأن الأزمة التي تعاني منها الدولة اليوم تتعلّق بشح الموارد، وقد انخفض حجم موازنة الدولة بشكل كبير بعد الانهيار. لذلك فإن توزيع الإيرادات على الأقضية ليس حلاً يساهم في انتشال القطاع العام من الحضيض الذي وصل إليه. فإيرادات الدولة لا تزيد حالياً على 1,6 مليار دولار.

أما في موضوع التوزيع وإعادة التوزيع، فإن مشروع بارود يركز على التوزيع، إلا أنه لا يلحظ إعادة التوزيع بشكل صحيح. فهناك الكثير من الأمثلة عن أرباح شركات ومؤسسات تُسجّل في المركز (بيروت)، في حين أنها تكوّنت في أماكن عدّة. على سبيل المثال المصارف التي تتركز في بيروت، وتتوزّع فروعها في كل أقضية لبنان. هذه المصارف راكمت القيم المضافة التي تُشكّل أرباحها في كل أنحاء لبنان، بينما تدفع ضريبتها على هذه الأرباح في بيروت. في هذه الطريقة، يُعاد توزيع الثروة بشكل يُركّزها في العاصمة. وهو ما يزيد من هوّة اللامساواة بين الأقضية، ولا سيّما بين المركز والأطراف.

(الأخبار)

التطبيع مع الطائفية: من نحن؟

فراس الشوفي

لم تعد الطائفية أزمة أو عيباً في الخطاب السياسي اللبناني. باستثناء قلّة قليلة من جماعة «الخطاب الخشبي»، لا أحد، تقريباً، يقارب الطائفية كسبب رئيسي لأزمة النظام. الآن، انحدرت مشكلات النظام في الخطاب العام، إلى محاربة نتائج الفساد والاتفاقية مع صندوق النقد الدولي، واللامركزية. على أساس أن المركزية أخذت فرصتها، وحقّقت نتائج «باهرة»، بانهيار الدولة وإفقار اللبنانيين. وهل توقّع اللبنانيون نتائج مختلفة؟ فنظام ما قبل الحرب كان فاسداً أيضاً، لكن مع موارد أكبر وعدد سكّان أقلّ، ولم ينتج سوى الحرب الأهلية. ماذا يمكن التوقّع من نظام الطائف الذي لم يُطبّق منه شيء؟ النظام اللبناني هو كل شيء إلّا نظاماً مركزياً، قبل الحرب وبعدها.

على علّاته، شكّل الطائف نقلة في النظام، بتبنّيه إلغاء الطائفية السياسية كمدخل للإصلاح السياسي. لكنّ أولئك الذين يبحثون عن حلول اليوم، وعن استكمال تطبيق الطائف، أهملوا كل ما يختصّ بإلغاء الطائفية، وانتقلوا إلى البنود التي تناسبهم. يبحثون عن شكل نظام من دون روح. هل في روح النظام مشروع لتوحيد اللبنانيين؟ توحيد مصالحهم وحياتهم؟ أو تعزيز انقساماتهم؟ وهل إذا تحوّل اللبنانيون إلى مواطنين بالفعل، يفقد زعماء القبائل أدوارهم؟

تُقارب الغالبية «البراغماتية»، اليوم، الموقف السياسي، من باب المصلحة الآنية، والتي هي المنفعة. الخطاب الطائفي مسموح، فذلك يندرج ضمن عدّة الشغل. تطبيع كامل مع الطائفية، والجميع يقدّر للجميع أن الغاية تبرّر الوسيلة. يقولون إن ذلك لـ«شدّ العصب». جناية، عندما معها، بتعزيز الخوف عند الجماعة. «أنا طائفي وأفتخر» شعار المرحلة. مع ذلك، لا يزال البعض يراهن على نتائج مختلفة. عندما تقع الحرب الأهلية المقبلة، سيسألون، كيف ولماذا؟ في عام 2018، فُصّل قانون الانتخاب على قياس الطوائف، وقُسّمت مدينة بيروت إلى شطرين، شرقية وغربية. اليوم، يبدون الدهشة حيال مطالب تقسيم بلدية العاصمة.

مناسبة هذا المقال، الحديث عن مطالب للتيار الوطني الحرّ من حزب الله، تتعلّق بضمانات لتطبيق اللامركزية الإدارية (والمالية) الموسّعة، وفورة الحديث عن الفدرالية. طيب، ما هي ضمانات التيار الوطني الحرّ بتطبيق تشكيل الهيئة الوطنية لإلغاء الطائفية السياسية وإقرار قانون انتخابي خارج القيد الطائفي كما ينصّ اتفاق الطائف؟ ليس التيار الوطني الحر وحده من يطالب باللامركزية، لكنّه الصوت الأعلى اليوم. قوى 14 آذار، ما عدا البعض في تيار المستقبل، تنادي باللامركزية كقناع للتقسيم، بحجّة سلاح المقاومة، كما تفعل القوات اللبنانية والكتائب. بعض النواب الجدد أيضاً يتبنّون هذا الطرح لاعتبارهم أنه آخر صيحات الليبرالية الغربية، ويمثل باعتقادهم الحل لكل أزمات الشرق. هؤلاء صعدوا على أكتاف «الصليب يعانق الهلال» في 17 تشرين، ثمّ تحوّلوا إلى متحدّثين باسم طوائفهم. كيف غاب إلغاء الطائفية عن مطالب الجميع؟

إذا لم يكن إلغاء الطائفية هو أساس الإصلاح السياسي، ما هو الإصلاح السياسي إذاً؟ فلنعترف، لقد عجزنا عن بناء الوطن، فصار مطلبنا الوُطَين، وهذه حلول العاجزين والكسالى والجبناء.

هكذا، منذ عام من النضال ضد الطائفية وتشخيصها كعلّة في النظام السياسي، كأنها لم تكن. الدولة تنهار والنظام الطائفي يتماسك بتجديد العهد بين القبائل. الحرب الأهلية، الضحايا، الدمار، التهجير، كلّ ذلك طُمس من التاريخ السياسي اللبناني، بقيت الأحقاد وغابت الدروس والعبر وحلول المستقبل. من نحن؟

اللامركزية الإدارية بين الحزب والتيار: البحث يبدأ من الصفر

(هيثم الموسوي)

ميسم رزق

ليست اللامركزية الإدارية في لبنان موضوعاً جديداً. إذ إنها كانت بنداً أساسياً في اتفاق الطائف (1989) في سياق تثبيت ركائز بناء الدولة. لكن، رغم مرور أكثر من ثلاثة عقود على الاتفاق، لم تجد الفكرة طريقاً إلى النقاش العملي. مع اشتداد الانهيار، وفي زمن البحث عن حلول لمشكلات البلد بعد الفشل المتلاحق لإدارة الحكم فيه، سياسياً واقتصادياً ومالياً وإدارياً، عادت اللامركزية لتُطرح على طاولة القوى السياسية، وسط انقسام حادّ حولها: فريق يتمسك بالمركزية الشاملة للدولة في وجه مشروع انفصالي، وآخر طامح إلى توسيع اللامركزية الذي لا تخلو صفوفه ممن يرون في التقسيم خياراً لحل مشكلات البلد. وبين هذا وذاك، تجاوز الجميع تطبيق اللامركزية الإدارية كما فسّرها اتفاق الطائف (أي إعطاء كل قضاء إدارة الحق في جباية ضرائبه والتركيز على نموّه الداخلي مع تخصيص جزء من الضرائب لنمو المناطق الأكثر حرماناً في لبنان)، ولم يُسمح باعتماد نموذج يمنع تضارب الصلاحيات أو التجاذب على النفوذ بين السلطة المركزية والسلطات المحلية.

أخيراً، عاد طرح اللامركزية الإدارية من بوابة الأزمة الرئاسية، تحت عنوان إعادة تكوين السلطة. وللمرّة الأولى، تتوافر ظروف داخلية للتفكير بصيغة جديدة للنظام تطال عمق المسائل السياسية والمالية أيضاً، بما يُحدث تغييراً في صلاحيات الدولة المركزية، بعدما أدرج رئيس التيار الوطني الحر جبران باسيل هذا الملف كأحد الشروط الأساسية لقبوله بانتخاب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية.

يناقش باسيل الملف مع الطرف الأقوى في البلاد، أي حزب الله، وعلى خلفية أن توافق الطرفين يتيح توسيع دائرة التفاهم مع قوى أخرى ذات ثقل في البلاد. في المبدأ، لم يرفض حزب الله مشروع اللامركزية يوماً، وإن كان يشدّد على الفارق النوعي بين اللامركزية الإدارية واللامركزية السياسية، علماً أن اتفاق الطرفين حول المشروع لا يعني تحوّله إلى أمر واقع. فالاتفاق يجب أن يقترن بتطبيق تشريعي لن يُؤمَّن إلا بموافقة الكتل السياسية الأخرى عليه، وهو ما أكده الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله في خطابه الأخير، بقوله «إذا اتفقنا مع التيار الوطني على مسوّدة ما فإننا معنيون بمناقشتها مع الأفرقاء، لأننا أمام اقتراح قانون فيه عدد كبير من المواد ويحتاج إلى أغلبية لإقراره في المجلس النيابي».

وفي المعلومات أن حزب الله والتيار الوطني شكّلا لجاناً خاصة للبحث في المشروع وضعت تصوّرها وملاحظاتها، على أن تبدأ اجتماعاتها الثنائية الشهر المقبل. وتضمّ لجنة حزب الله الوزير السابق محمد فنيش، النائب علي فياض ورئيس المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق عبد الحليم فضل الله، فيما تضم لجنة التيار النائب الآن عون ومستشار رئيس الجمهورية السابق أنطوان قسطنطين والمحامي طوني عبود.

> **الحزب سيقارب المشروع من زاوية تتجاوز أكثر بكثير المصلحة «الخاصة» للتيار**

سابقاً، عُرضت على القوى السياسية مشاريع واقتراحات قوانين عدة تقدّم بها نواب منذ عام 1995، من بينها مشروع تقدم به الوزير زياد بارود الذي تبنّاه باسيل، وقدّمه إلى الحزب كمسوّدة للوصول إلى اتفاق. ومع أن المشروع نوقش في لجنة نيابية فرعية منبثقة عن لجنة الإدارة والعدل تمثلت فيها كل الكتل النيابية، وتوصلت إلى الاتفاق على عدد من بنوده بعد إدخال تعديلات عليها، إلا أن المعلومات تشير إلى أن البحث سيبدأ من الصفر، حيث سيُعاد درس الموضوع برمّته والنقاش في كل البنود بما يضبط الغرائز المتفلّتة حالياً. إذ إن المشهد اللبناني حالياً يُظهر اللامركزية كمطلب القوى المسيحية، يتكاثر مناصروه يوماً بعد يوم، وأن حزب الله سيقدّم المشروع هدية إلى باسيل باعتباره «مازوماً» في انتخاب فرنجية. غير أن الأمر ليس بهذه البساطة. والمؤكد أن الحزب سيقارب المشروع من زاوية تتجاوز أكثر بكثير المصلحة «الخاصة» للتيار. فالحزب، وفق مصادره، لا يعارض «مشروع اللامركزية كنظام إداري صرف مع العناية الشديدة بتحديد معالمه ومضامينه بما يقطع الطريق على أي تداخل مباشر أو غير مباشر مع اللامركزية السياسية، وبما لا يؤدي إلى إضعاف دور الدولة». وهذا هو التوجه الذي سيحكم معايير الحزب على طاولة البحث.

مشروع زياد بارود

أواخر عام 2012، كلّفت حكومة الرئيس نجيب ميقاتي وزير الداخلية آنذاك زياد بارود مع مجموعة من الخبراء، إعداد مشروع قانون للّامركزية الإدارية. وبعد نحو سنة أنجزت اللجنة ما بات يعرف بـ«مشروع زياد بارود»، وأبرز ما فيه:

- تقوم اللامركزيّة الإداريّة على انتخاب هيئات محلّية مختلفة تتمتّع بالشخصيّة المعنويّة وبالتالي بالاستقلال المالي والإداري تدير شؤون الوحدة اللامركزية.
- تعتمد الدولة اللبنانية نظاماً لامركزياً موسّعاً على مستوى مجالس محلّية منتخبة تتمتّع بالشخصية المعنوية وبالاستقلالين الإداري والمالي وتمارس صلاحيات واسعة وتشمل المجالس البلدية ومجالس الأقضية ومجلس مدينة بيروت، أي إن المشروع اعتمد القضاء وحدة لامركزية، على أن ينتخب مجلس في كل قضاء يعطى صلاحيات إدارية ومالية مستقلة مدعومة بواردات تجيز لمجلس القضاء الاضطلاع بالمهمات العديدة العائدة له.
- يُلغي المشروع القائمقاميات ووظيفة القائمقام وينقل صلاحيات الأخير إلى مجلس القضاء المنتخب، مع الإبقاء على وظيفة المحافظ كصلة وصل بين المناطق والمركز (عبر اللاحصرية)، ويضع بعض صلاحيات المحافظ التنفيذية في يد مجلس القضاء المنتخب.
- يستبدل مشروع الصندوق البلدي المستقل بصندوق لامركزي يراعي ضرورات الإنماء المتوازن، ويتمتع بالشخصية المعنوية وبالاستقلالين الإداري والمالي ويخضع لرقابة ديوان المحاسبة المؤخّرة، من دون أي رقابة مسبقة. ويتولّى الإشراف على أعمال الصندوق مجلس أمناء منتدبون من مجالس الأقضية والبلديات لولاية محدّدة. ويشكّل الصندوق الآلية الأساسية لتأمين ظروف تنموية متكافئة بين مختلف المناطق وردم الهوة تدريجياً بين المناطق الغنيّة والمناطق الفقيرة.
- نصّ المشروع على أن تحدّد حصص الأقضية من إجمالي التسعين في المئة العائدة لها وفق معدّلات المؤشرات الآتية: مؤشر واقع التنمية، مؤشر تحصيل الرسوم سنوياً، مؤشر عدد السكان المسجلين، مؤشر مساحة القضاء. وتحدّد حصص البلديات من إجمالي الثلاثين في المئة العائدة لها وفق الأسس الآتية: مؤشر عدد السكان المسجّلين، مؤشر عدد وحدات التكليف، مؤشر تحصيل الرسوم سنوياً استناداً إلى الحساب القطعي للبلديات.
- ينص المشروع على إنشاء هيئة مستقلّة خاصة بانتخابات مجالس الأقضية ومجلس مدينة بيروت. تتمتّع الهيئة بصلاحيات واسعة في مجال الإعداد لهذه الانتخابات والإشراف عليها في جميع مراحلها.
- خصّص المشروع فصلاً كاملاً لموضوع الشراكة بين القطاعين العام والخاص. ولحظ استحداث أجهزة متخصّصة دائمة تعمل بشكل متكامل وتراكمي على توثيق ودراسة وتحليل المعطيات والأرقام والديناميات المرتبطة باللامركزية والحوكمة المحلّية ونشرها ومناقشتها في سبيل تطويرها. هذه الأجهزة هي الجهاز الإحصائي، جهاز الحوكمة المحلية، وجهاز المعلوماتية.
- أنشأ مشروع القانون وزارة الإدارة المحلية لتتولّى المساهمة في تطبيق أحكام قانون اللامركزية، ومعهداً مركزياً يتولّى إعداد العاملين والشرطة في مجالس الأقضية وتدريبهم.

> **على طاولة البحث أمراً تقنياً بحت، بل يتصل بتوجهات سياسية، وهو ما يفرض صياغته بطريقة مدروسة تمنع اصحاب النزعات الفيدرالية من استخدامه لإضعاف الدولة وبناء كيانات ذاتية. وتعتبر أوساط معنية بالنقاش أن المهم أولاً تثبيت الحدود الفاصلة بين اللامركزية الإدارية التي حدّد اتفاق الطائف إطارها، وبين الفيدرالية التي تعد نظاماً سياسياً يحتاج إلى تعديل دستوري. فضلاً عن اعتماد لامركزية مالية مضبوطة، تحدد توزيع صلاحيات السلطة المالية وتوزيع الموارد الضريبية بين الدولة المركزية والسلطات المحلية، وتلزم الإدارات المحلية بإجراءات وقوانين فيما يتعلق ببعض العائدات، مثل تلك المتعلقة بالهبات الخارجية. والأهم من ذلك كله، هو النقاش الصعب حول صلاحيات القوى الأمنية المحلية، كي لا تتحول إلى قوى مسلّحة تنافس الجيش وقوى الأمن الداخلي، وتقييد القرارات المتعلقة بالشراكة مع القطاع الخاص والقيام بمشاريع استثمارية، من خلال تحديد نوع المشاريع ذات المنفعة العامة التي يُمكن أن تنفذها المجالس المحلية داخل نطاقها الإداري. إذ إن شقّ طريق أو بناء سد، على سبيل المثال، يختلفان عن إقامة مطار أو إنشاء مرفأ تجاري!**

مشروع جامعة الكسليك

عملت جامعة الروح القدس في الكسليك، أخيراً، على تطوير مشروع للّامركزية الإدارية، ليتم اعتماده من عدد من النواب وتقديمه كمقترح بقانون إلى مجلس النواب. وهو طرح وصفته مصادر نيابية بأنه يحاكي المزاج المسيحي العام الراغب باستقلالية مطلقة. وبعد عرض المشروع على عدد من القوى المسيحية، أبدى بعضها بينما اعتبره البعض الآخر ناقصاً، وخصوصاً من باتوا أكثر اقتناعاً بالطرح الفيدرالي كالقوات اللبنانية التي عبّرت عن هذا الموقف خلال لقاء مع وفد الجامعة.

ما هو مجلس القضاء؟

مجالس الأقضية مؤلّفة من هيئة عامة ومجلس إدارة. في ما يتعلّق بالهيئة العامة ينتخب أعضاؤها بالاقتراع المباشر وفق النظام الأكثري في كلّ من المدن والقرى ضمن القضاء الواحد. وتتمثّل المدن والقرى وفق شطور محدّدة في القانون، ما يضمن تمثيلاً صحيحاً. أما أعضاء مجلس الإدارة الـ 12، فينتخبون من قبل الهيئة العامة على أساس النظام النسبي واللائحة المقفلة، المكتملة أو غير المكتملة. مُنح مجلس إدارة القضاء صلاحيات واسعة منها:

- وضع خطة استراتيجية وتعديلها لتنمية القضاء وإعداد الدراسات اللازمة لذلك.
- تخطيط أشغال وتنفيذها وتطوير البنى التحتية بما فيها السدود والبحيرات ومجاري الأنهر وإنتاج الطاقة، والمشاريع الخدماتية و/أو الإنمائية و/أو الاستثمارية، وإدارتها مباشرة أو بواسطة الغير.
- إقامة مشاريع إنتاجية و/أو استثمارية لها طبيعة اقتصادية وذات منفعة عامة.
- حماية البيئة والثروة الحرجية بالتنسيق مع البلديات المعنية ووضع خطة للتنمية السياحية على مستوى القضاء، وكذلك وضع خطة للتنمية الثقافية وحماية التراث، والمساهمة في تطوير تكنولوجيا المعلومات على مستوى القضاء.
- تخطيط الطرق الواقعة ضمن نطاق القضاء وإنشاؤها وتقويمها وتوسيعها وصيانتها، باستثناء الطرق الدولية والطرق المحلية الواقعة ضمن نطاق بلدية واحدة، وإنشاء الحدائق والساحات العامة والملاعب والمجمّعات الترفيهية.
- وضع التصاميم العائدة للقضاء والمخطّط التوجيهي العام بالتعاون مع المديرية العامة للتنظيم المدني وبعد موافقة البلديات، كلّ ضمن نطاق القضاء، مع حق اقتراح تعديل الخطة الشاملة لترتيب الأراضي ضمن نطاق القضاء.

(أ ف ب)

قضية

لم يحّد مجلس «جامعة الدول العربية» يُنهي اجتماعه الأخير في مدينة جدة في 19 آيار الفائت، بحضور الرئيس السوري، بشار الأسد، حتى توجّهت الأنظار الى المرحلة «العملية» التي ستلي. مرحلةٌ كان بدا أول معالمها يتّضح في اجتماع عمّان في الأول من أيار، حيث أقرّ وزراء خارجية كلّ من السعودية والأردن والعراق ومصر، بحضور نظيرهم السوري، ببقاء النظام في دمشق، وحتمية التعامل معه والتوصّل إلى «تسوية» ترضيه والدول العربية والغربية. هكذا، ولد ما أُطلق عليه لاحقاً «المبادرة الاردنية». ليضحي هو الإطار العام لعملية التقارب، وليشكّل محوراً رئيساً لكلّ اللقاءات الدبلوماسية اللاحقة بين المسؤولين العرب ونظرائهم السوريين. في ما يلي تفاصيل المبادرة الممتدّة على عشر صفحات، والتي اطّلعت «الأخبار» على مضمون النقاشات بشأنها منذ أيار الماضي حتى اليوم، حيث يستمر الشدّ والجذب حولها، منعكسيْن عقبات كأداء في طريق التقارب السوري - العربي

محاضر اجتماعات «العرب - سوريا»:

أعطونا بالتفاوض ما لم نأخذه بالحرب

حسين الأمين

تنطلق المبادرة الأردنية من أنه بعد 12 عاماً من الحرب في سوريا، لا يبدو أن في الأفق حلاً، ولا استراتيجية واضحة للوصول إلى تسوية سياسية. ولذا، فهي تحدّد 5 مبادئ رئيسة تنطلق منها:

- لا حلّ عسكريّاً للأزمة.
- تغيير النظام ليس هدفاً فعّالاً.
- القرار الدولي 2254 هو أفضل سبيل للحلّ.
- الوضع الراهن يتسبّب بتفاقم معاناة السوريين، ويقوّي الخصوم (في إشارة إلى إيران).
- عدم التدخّل أو تأخيره سيؤدي إلى نتائج قد يتعذّر تغييرها لاحقاً.

بعد ذلك، تنتقل المبادرة إلى تفنيد الهواجس العربية عموماً، والأردنية خصوصاً، وأبرزها: تهريب المخدّرات عبر الحدود الجنوبية، عودة التنظيمات الإرهابية، تزايد النفوذ الإيراني، عدم عودة اللاجئين إلى سوريا وتراجع الدعم الدولي للاجئين والدول المضيفة. أما بالنسبة إلى آلية الحلّ المنشود، فتقترح خطوات عدّة أبرزها: دعم مبادرة «خطوة مقابل خطوة»، حشد الدعم لمبادرة جديدة عربية وإقليمية، انخراط الحكومة السورية في مفاوضات عروض وطلبات والسعي للحصول على موافقة روسيا على هذه المبادرة. وبناءً على ما سبق، تتحدّد 3 مستويات للتسوية الشاملة للأزمة، وهي:

سياسياً: الوصول إلى حل سياسي يحفظ وحدة وسلامة وسيادة سوريا، أمنياً وعسكرياً: وقف إطلاق نار شامل، معالجة مسألة المقاتلين الإرهابيين الأجانب ومعالجة المخاوف الأمنية للدول المجاورة في ما يتعلّق بأمن الحدود، بالإضافة إلى تفكيك شبكات تهريب المخدّرات. وكذلك معالجة الوجود الإيراني، عبر إخراج قادة «الحرس الثوري الإيراني» وقواته، وانسحاب جميع العناصر العسكريين والأمنيين غير السوريين من المناطق الحدودية مع الدول المجاورة، ومنع «الميليشيات» الموالية لإيران من استخدام سوريا مركزاً لإطلاق هجمات عبر طائرات من دون طيار (درونز) أو هجمات عابرة للحدود، وتخفيض العتاد العسكري الإيراني في سوريا من حيث المواقع الجغرافية ونوعية الأسلحة.

إنسانياً: إحداث تبدّل تدريجي في سلوك الحكومة مقابل حوافز تحدّد بتأنٍّ لمصلحة الشعب السوري، وتمكين بيئة مناسبة لعودة اللاجئين، فيما تكون الأمم المتحدة هي المسؤولة عن إيصال كل الدعم الإنساني إلى كل المناطق. ولتنفيذ هذه الخطة، تحدّد المبادرة 3 مديات زمنية، من دون تحديد تواريخ أو مهل، هي:

المدى القريب: خطوات لبناء الثقة بما يتوافق مع القرار 2254، ومعالجة الأمور الخاصة بالمستوى الإنساني بشكل خاص.

المدى المتوسّط: الشروع في البعدين الأمني والعسكري، من خلال تطبيق وقف إطلاق نار شامل، وتجميد التجنيد العسكري لمدة عام على الأقل، وتخفيض الحضور العسكري الإيراني، وزيادة مكافحة تهريب المخدّرات.

المدى البعيد: انسحاب جميع القوات الإيرانية و«الشيعية» من سوريا.

وفي المرحلة النهائية، وبعد تحقّق كل ما سبق، تعمل الدول العربية على إعادة إدماج سوريا سياسياً، في المنطقة والعالم. وفي مقابل كل خطوة تقوم بها الحكومة السورية وفق البرنامج المذكور، تحصل على خطوة تحفيزية من مثل الاستثمار في مشاريع التعافي المبكر، وزيادة المساعدات الإنسانية لسوريا، واستحداث قناة آمنة تسمح للهيئات الإنسانية والمدنيين بتحويل الأموال إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة السورية لتسهيل المساعدات الإنسانية ومعاملات التحويلات، وابتكار آلية إنسانية محددة تسمح بتصدير أشياء إلى سوريا للاستخدام المدني كأدوية معينة ومعدات للمستشفيات وإمدادات زراعية ولوازم صيدلانية (ممنوعة حالياً لأنها تُعتبر متعددة الاستخدام، بفعل قانوني «قيصر» و«الكبتاغون»). كما يُفترض أن يقوم المانحون وهيئات الأمم المتحدة المعنية، بالتنسيق مع الحكومة السورية، بالاستثمار في المناطق التي يُتوقّع أن يعود إليها اللاجئون، وتصميم مشروع تجريبي لعودة اللاجئين والنازحين بدءاً من الجنوب السوري. كذلك، تدعم الدول العربية الحكومة السورية في المحافظة على المرافق والخدمات العامة، وتقترح آليات لصيانة هذه المرافق، وعلى رأسها محطات الكهرباء والسدود التي تقع راهناً تحت العقوبات الغربية. كما تتعهّد بدعوة جميع الأطراف السورية، بمن فيها تلك المسيطرة على الشمال الشرقي، إلى الالتزام بوقف إطلاق النار، وبالعمل على إعادة إحياء المنظمات العامة السورية ومنظمات الخدمة المدنية شمالي سوريا، على أن تتّبع المدارس في تلك المناطق المناهج السورية. وبحسب المبادرة، فإن الحوافز تتضمّن أيضاً تطبيق تخفيف تدريجي للعقوبات على سوريا، بدءاً بتسهيل تجارة السلع عبر أطراف ثالثة، ورفع العقوبات عن المرافق العامة السورية بما فيها المصرف المركزي والهيئات الحكومية والمسؤولين.

> تنطلق المبادرة الاردنية من 5 مبادئ رئيسية، وتحدّد 3 مستويات للتسوية الشاملة للأزمة، خلال 3 مديات زمنية، من دون تحديد تواريخ او مهل

شكل إنساني وجوهر سياسي

تعتمد «المبادرة الأردنية»، في العمق، على خطة «خطوة مقابل خطوة»، والتي هي في جوهرها مبادرة سياسية، ولكن بشكل إنساني، إذ تستند إلى أسس القرار الدولي 2254، والتي تنصّ على آلية حكم انتقالية عبر تشكيل حكومة بصلاحيات محددة. ومن هنا، من المفترض أن تثمر اجتماعات «اللجنة الدستورية» تعديلات دستورية تخفّض صلاحيات رئاسة الجمهورية، وتمنحها لرئاسة الوزراء، بما يعني «لبْننة» الحالة السورية، ومنح أدوار للطوائف المختلفة.

أمّا على المستوى الأمني، فتنص «خطوة مقابل خطوة» على إلغاء التجنيد الإجباري أو تجميده لفترة محدّدة، وإعادة هيكلة القوات المسلحة، والبحث في مصير «الفرقة الرابعة» من الجيش السوري، وفي مرحلة لاحقة، إعداد مشروع لدمج المعارضة المسلّحة بالقوات النظامية، وفتح النقاش حول التعيينات في المناصب العسكرية العليا. وفي المرحلة الأخيرة، يجري إخراج القوات الإيرانية و«حزب الله» وحلفائهما، من سوريا.

وفي ما يتعلق بالملف الإنساني، تدعو المبادرة إلى إنجاز «عفو عام»، وتحسين ظروف الاعتقال وإدارة السجون. كما تشدّد على أهمية إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية، لما لها من انعكاس على المستوى الإنساني.

المطلوب: ورقة عمل سورية

تمثّل أوّل تحرّك دبلوماسي جدّي، في سياق التقارب العربي - السوري، بعد لقاء عمّان وقمة دمشق، في زيارة وزير الخارجية الأردني، أيمن الصفدي، لدمشق، في 3 تمّوز الفائت. ففي الاجتماع الذي عقده الصفدي مع الرئيس بشار الأسد ووزير خارجيته ومسؤولين آخرين، طرح الوزير الأردني قضايا متعلّقة بالنازحين وتهريب «الكبتاغون»، والضغوطات الدولية لإجراء «إصلاحات» سياسية. وبحسب معلومات حصلت عليها «الأخبار»، فإن الصفدي شدّد على ضرورة أن «تبادر سوريا إلى تسهيل عودة بعض النازحين، ولو بأعداد قليلة، كإشارة حُسن نيّة»، ليجيب الأسد بأن «النازحين هم مواطنون سوريون، والطبيعي هو أن يعودوا جميعاً إلى وطنهم، لكن البنية التحتية الحالية الضرورية للسكن والطبابة والتعليم والعمل غير متوفّرة، والمجتمع الدولي يرفض أي مساعدة لإعادة بنائها». عقب ذلك، عاد الصفدي وكرّر طلبه، مقترحاً أن تُنظّم عودة «ألف نازح سوري من الأردن خلال فترة قصيرة، على أن تكون تلك تجربة أوّلية يمكن أن يُبنى عليها في مرحلة لاحقة»، فوافق الرئيس السوري على هذا المقترح، ووعد بتنفيذه. كذلك تطرّق الوزير الأردني إلى الضغوطات الدولية، وتحديداً من «الأمم المتحدة» و«الاتحاد الأوروبي» والولايات المتحدة، وقال إن بلاده تتصدّى لها، مضيفاً أنه «يُسمع كلاماً قاسياً أحياناً لجهة مبدأ السيادة، وعدم التدخّل في الشؤون الوطنية الداخلية، مدافعاً بذلك عن الموقف السوري»، على حد زعمه. لكنّ الصفدي عاد وأكّد أنه «من الصعب، وأحياناً من المستحيل، الدفاع عن بعض الأمور»، طالباً من الأسد أن يدافع عن وجهة نظر بلاده «عبر اتّخاذ بعض الإجراءات القانونية والعملية المطلوبة»، هامساً بين الحاضرين: «ساعدونا لنساعدكم».

ونبّه وزير الخارجية الأردني إلى أن «إعلان عمّان» ما زال بمجمله «حبراً على ورق»، ولم يرَ لا المجتمع العربي ولا الدولي أيّ خطوات ملموسة بعده، طالباً من الأسد إعداد ورقة تحتوي برنامجاً زمنياً واضحاً لإجراءات ستّتخذها الحكومة السورية تطبيقاً لمقرّرات عمّان، «لتُعرض في اجتماع اللجنة الخماسية الذي (كان) سيُعقد في القاهرة في 16 آب». وقال الصفدي إنه «لا تزال أمام السلطات السورية بضعة أسابيع قبل اجتماع القاهرة، ويجب أن تستفيد منها لتعدّ الورقة المطلوبة»، مضيفاً أن «اللقاء الخماسي سيكون مفصلياً لتبرهن سوريا على جدّيتها».

اجتماع القاهرة: ابن الورقة؟

بعد شهر ونصف شهر من زيارة الصفدي، انعقد في القاهرة، في 16 آب الماضي، الاجتماع الأول لـ«اللجنة الخماسية» المكوّنة من وزراء خارجية الأردن، والسعودية، والعراق، ولبنان، ومصر، بالإضافة إلى الأمين العام للجامعة، والتي أُعلن عن تشكيلها في قمة جدّة، ومهمّتها «متابعة تنفيذ بيان عمّان، والاستمرار في الحوار المباشر مع الحكومة السورية». خلال الاجتماع، وكما كان متوقّعاً، طالب المجتمعون وزير الخارجية السوري، فيصل المقداد، بـ«ورقة تحمل برنامج عمل يتوافق مع المبادرة الأردنية وإعلان عمّان». والهدف من ذلك، «إظهار اللجنة الخماسية كلجنة فاعلة، تحدّد برنامج عمل وتسير وفقه، وتُرضي الغرب وبعض الدول العربية، وتُظهر الحكومة السورية في موقع المتجاوب». لكن بحسب مصادر «الأخبار»، فإن المقداد «لم يبدِ تجاوباً، بل طالب وزراء الخارجية الحاضرين بأن يطالبوا الغرب برفع الحصار عن سوريا، بدل أن يطالبوا سوريا بتقديم تنازلات تُرضي الغرب». وهنا احتدّ الجدال بين وزير الخارجية المصري، ونظيره السوري، ما دفع الوزير الأردني إلى لعب دور «الإطفائي»، بمساعدة من نظيره السعودي.

وبحسب المعلومات، فقد أكّد المقداد، أن «استثناءات «قيصر» شارفت على الانتهاء، ومن بعدها ستكون هنالك موجة شديدة من العقوبات، وتشديد الحصار، وتحريك الشارع السوري مجدّداً»، ليتقرّر، في ختام الاجتماع، التنسيق مع الأمم المتحدة والأطراف الأخرى، من أجل عقد اجتماع لـ«اللجنة الدستورية» في سلطنة عمان قبل نهاية هذا العام، بعد توقّف اجتماعاتها منذ منتصف عام 2022.

على هذا النحو، انتهى آخر الاجتماعات في سياق التقارب العربي - السوري، وهو ما بدا انعكاسه واضحاً في البرود الذي عاد يلفّ العلاقات السورية - العربية، وعدم جني سوريا أيّ «فوائد» من عودتها إلى الجامعة، وانخراطها في مسار تفاوضي يبدو طويلاً ومعقّداً. كذلك، يظهر جلياً أن ثمة من العرب من هو غير قادر بعد على الاعتراف بأن الحكومة السورية وحلفاءها قد حسموا المعركة العسكرية، لصالحهم، ومنعوا إحداث تغييرات جوهرية في شكل الحكم. وعلى هذا الأساس، وبما أن الأسد باقٍ على رأس الجمهورية، فإن البحث لدى هؤلاء هو عن سبيل واحد فقط: كيف يُجوَّف انتصار سوريا؟

وظيفة شاغرة

تعلن جريدة الاخبار عن حاجتها
إلى مدقق لغوي متفرغ بدوام كامل .
الشهادة المطلوبة : إجازة في اللغة العربية
الخبرة : لا تقل عن 5 سنوات
للمهتمين يمكنكم إرسال السيرة الذاتية إلى
HR@al-akhbar.com

نقابة المحامين في بيروت

دعوة هيئة المندوبين إلى اجتماع عادي

عملاً بالمواد ٢٤ إلى ٢٨ من قانون تنظيم مهنة الهندسة والمادة ٤٠ من النظام الداخلي تدعى هيئة المندوبين لعقد اجتماع عادي في دار النقابة - بيت المهندس في الرابعة من بعد ظهر الجمعة ٢٢ أيلول ٢٠٢٣، وفي حال عدم اكتمال النصاب تدعى هيئة المندوبين لعقد الاجتماع الثاني في الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة ٢٩ أيلول ٢٠٢٣، ويعد الاجتماع قانونياً مهما كان عدد الحاضرين.

جدول الأعمال:

١ ـ قطع حساب السنة المالية ٢٠٢٢/٢٠٢٣ لصناديق النقابة كافة.
٢ ـ المصادقة على موازنة السنة القادمة ٢٠٢٣/٢٠٢٤
٣ ـ المصادقة على موازنة الصندوق التقاعدي للسنة القادمة ٢٠٢٣-٢٠٢٤
٤ ـ تعيين خبير مدقق حسابات النقابة.
٥ ـ الاستماع إلى تقرير مجلس النقابة ولجنة ادارة الصندوق التقاعدي ومناقشته.

النقيب عارف ياسين

سُبحان الحيّ الذي لا يموت

(يا أيّتها النفس المُطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مَرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي)

آل الصباغ وآل بديع

ينعون إليكم بمزيد من الأسى والرضا بقضاء الله وقدره فقيدَهم الغالي

المرحوم بإذن الله

الحاج عبد الغني محمد الصباغ

والدته: الحاجّة منيرة حفوضه
أرملته: الحاجّة مزين بديع
أبناؤه: المهندس مازن، زوجته زينة فحص وناصر، زوجته لينا الخولي
الصحافي نادر، زوجته ميساء صباغ
ابنتاه: إمّار زوجة نزيه الآغا والمهندسة سمر زوجة المهندس بشير قصاب
أشقاؤه: زياد والمرحومون يوسف ومحمود وأحمد
شقيقاته: فاتنة ومهى والمرحومات بهيجة ومطيعة وفايزة
أشقّاء زوجته: المهندس خضر بديع والمرحومون محمد ومختار وحبيب
شقيقات زوجته: المرحومات نازك وفاطمة وهدية

توفّاه الله يوم الخميس الواقع فيه 2023/8/31 الموافق لـ 15 صفر 1445 هجري، صُلّي على جثمانه الطاهر ظهر أمس الجمعة الواقع فيه 2023/9/1 في مسجد الغفران في مقبرة صيدا الجديدة.

ووري الثرى في مقبرة صيدا الجديدة (سيروب).

قُبلت التعازي في اليومين الأول والثاني للرجال في قاعة مسجد الحاج بهاء الدين الحريري، وللنساء في القاعة الغربية من مسجد الحاج بهاء الدين الحريري من بعد صلاة العصر حتى صلاة المغرب، وتُقبل اليوم الثالث من الساعة العاشرة صباحاً حتى صلاة الظهر، ومن صلاة العصر حتى صلاة المغرب، للرجال والنساء في قاعة مسجد الحاج بهاء الدين الحريري.

ولكم من بعده طول البقاء.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

استراحة

إعداد **نعوم مسعود**

كلمات متقاطعة 4395

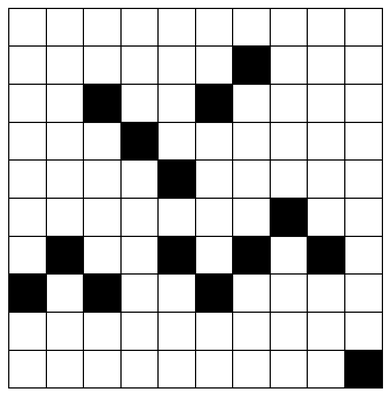

أفقيا

1- ولاية أميركية – 2- أنتج الكهرباء بواسطة الماء – معلم سياحي شهير في الهند – 3- نجم بهي طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ – حرف جر – إسم موصول – 4- تقتربان – واظب على الطلب – 5- أخشاه – أسرع في مشيه – 6- جواب – جاذبية وحضور طاغ – 7- من الحشرات – 8- سوق غير رائج – خاصتها بالأجنبية – 9- مدينة مصرية – 10- دولة إسلامية شيعية في المغرب إستقلّتْ عن الخلافة العبّاسية

عمودياً

1- إحدى دول أميركا الوسطى – 2- من الطيور – أداة إستثناء – 3- عندنا – بائع العسل – 4- مدينة ألمانية – وضعا خلسة – 5- كسر الخبز بالأصابع – ذلّ وحقّرَ – تعب – 6- مدينة أميركية بضاحية دترويت – شرس خلقه – 7- شهر هجري – عائلة شاعرة أميركية الهمت جبران خليل جبران وكانت رفيقة إبداعه – 8- وشى – من أسماء الخمر – بئر قديمة – 9- يرفعهم بين يديه – والدي بلغة العامة – 10- محافظة سعودية – متشابهان

حلول الشبكة السابقة

أفقيا

1- بورت ستانلي – 2- أكابولكو – 3- لوساكا – 4- سيام – نسَ – لف – 5- ل ل ل – كندا – 6- لوز – بليَ – هل – 7- ردود – يرب – 8- رِزام – قرَظ – 9- وبَ – الرقم – 10- لوريان

عمودياً

بولس الرسول – 2- وي – ود – بو – 3- رأس الزور – 4- تكامل – درزني – 5- ساك – لب – 6- تبّان – ليمان – 7- او – سكيّر – 8- نلس – بقرة – 9- لك – لدّه – رق – 10- يوسُف

sudoku 4395

6		9		5				8
	7			1	8		5	9
	3				6	1		
2		4						
		8	2	3	9			
7		3						
5			8			2	7	
	2		1	7			8	
3				4		5		1

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أو عمودي.

حل الشبكة 4394

9	8	2	5	4	1	3	7	6
7	3	4	8	9	6	5	1	2
1	6	5	3	7	2	4	9	8
5	9	6	2	3	7	1	8	4
2	7	8	4	1	5	9	6	3
4	1	3	6	8	9	7	2	5
8	5	7	9	2	4	6	3	1
3	4	1	7	6	8	2	5	9
6	2	9	1	5	3	8	4	7

مشاهير 4395

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

روائي وكاتب دراما فرنسي (1848-1917). من أعماله « يوميات خادمة «
7+8+9+1+10+2 = خطيب الثورة الفرنسية ■ 6+4+3 = بطش وقتل ■ 11+5 = للندبة

حل الشبكة الماضية: **لطفية النادي**

قضية

«بريكس» ما بعد التوسّع
«نادٍ مفتوح» أم منافس عتيد؟

خضر خروبي

منذ الإعلان الرسمي عن تأسيسه قبل عقد ونيّف، بدا تكتّل «بريكس» متوافقاً مع «تردّد» سياسي عالمي ينشد إقامة نظام دولي جديد، متعدّد الأقطاب، مع تنبّيه ما كثر الحديث عنه في شأن ضرورة إصلاح هياكل النظام القائم، ربطاً بمعايير تمثيلية أكثر واقعية. وأمام تعذّر تحسين مستوى الاستجابة الغربية عموماً، والأميركية خصوصاً، للدعوات المطالبة بإعطاء صوت أكبر لـ«الجنوب العالمي» في المحافل الدولية، تحوّلت هذه الدعوات من نهج العمل الجماعي الرامي إلى تحسين التمثيل العادل للدول، والذي تجلّى ابتداءً في اكتفاء الدول المعنيّة في المجموعة (روسيا، الصين، الهند والبرازيل قبل انضمام جنوب أفريقيا عام 2010) بتنسيق مواقفها داخل المنظّمات الدولية («التجارة العالمية والبنك الدولي)، نحو نهج تعاوني «أكثر ثورية»، عبر السعي إلى خلْق منظّمات بديلة من تلك التي تعود إلى نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية.

«بريكس» بين الأمس واليوم

ضمن مسار تاريخي ممتدّ، جاء انعقاد أول اجتماع لبلدان المجموعة، على مستوى وزراء الخارجية، على هامش اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 2006، ليعقبه تنظيم أول قمّة رسمية لزعمائها عام 2009. وشهد عام 2015 انطلاق «بنك التنمية الجديد» (بنك بريكس) ليمثّل أحد أبرز إنجازاتها على الصعيد المالي، علماً أن إجمالي القروض الممنوحة من جانب البنك الوليد تجاوز 30 مليار دولار. ويكاد «الدور التمثيلي» الراهن لـ«بريكس»، باعتبارها «صوت العالم النامي»، يتكامل أو يتقاطع مع دور تكتّلات إقليمية أو اقتصادية أخرى، على غرار «مجموعة العشرين»، و«ميركوسور» اللاتينية، و«الاتحاد الأفريقي». ومهما لا شكّ فيه، أن خطوات الإعلان عن تأسيس «بنك بريكس»، إضافة إلى إنشاء صندوق ما يسمّى «احتياطي الطوارئ» بهدف معالجة أزمات السيولة، برأس مال قدره 100 مليار دولار، تستلهم تجربة «صندوق النقد والبنك الدوليّين»، بهدف تقديم بدائل معيارية لدوريهما ضمن شروط «فُضلى» من قِبَل المجموعة.

أمّا على الصعيد السياسي، تعكف «بريكس» على إعطاء دفعة لحضورها الدولي، مستفيدةً من كون الصين، التي يُنظر إليها على أنّها «القائد الفعلي» للتكتل، والتي يفوق ناتجها المحلّي الإجمالي الناتج المحلي لشركائها في «بريكس» بأكثر من الضعف، الشريك التجاري لعدد كبير من دول العالم، بخاصّة بلدان «العالم الثالث». وبعدما كان توطيد التعاون الاقتصادي بين أعضاء المجموعة، وتيسيره بوسائل شتّى، من ضمنها ترسيخ آليات التبادل التجاري بالعملات المحلية، أولوية على أجندتها بدءاً من عام 2017، حيث نما هذا التبادل خلال الفترة المشار إليها بنسبة 56%، لتصل قيمته إلى 422 مليار دولار، فإن تركيز قادة «بريكس» راهناً ينصبّ على توسيع مروحة التعاون إليه، ضمن إجراءات من بينها فتح باب العضوية أمام دول جديدة للمرّة الأولى منذ عام 2010، فضلاً عن محاولة خلْق عملة جديدة لدول التكتّل.

توازنات أم تباينات؟

على رغم حرْص الرئيس الجنوب أفريقي، سيريل رامافوزا، خلال قمّة جوهانسبورغ، على إبراز وحدة المجموعة حيال مسألة توسيع العضوية، لا تبدو «بريكس» كتلة متجانسة «على طول الخطّ»؛ إذ اعترتها تباينات في المصالح السياسية والأمنية تحكّمت بواقع التوازنات داخلها على مرّ الأعوام الماضية، سواء بسبب الخلافات الثنائية بين الصين والهند، أو على خلفية انسياق البرازيل خلال عهد الرئيس السابق، جايير بولسونارو، وراء السياسات الأميركية.

وكثيراً ما «تصطاد» واشنطن في تلك التباينات، وتحديداً لناحية العمل على استمالة نيودلهي، المحسوبة على «الحلف القيمي الغربي»، لتوظيف حضورها الوازن داخل المنظّمة ضدّ «الجمهورية الشيوعية»، بالنظر إلى تقاربها الاقتصادي، ناهيك عن الديموغرافي مع الصين، فضلاً عن امتلاكها حصصاً متساوية معها في «بنك التنمية الجديد». ولعلّ هذه الاعتبارات تندرج في صميم السياسة الأميركية لمواجهة الصين، ومنافستها على خطب ودّ «الجنوب العالمي»، والذي تمظهرت أحدث صوره في الدعوة التي وجّهتها «مجموعة السبع» إلى الهند، وكذلك إندونيسيا، والبرازيل، لحضور قمّتها الأخيرة. ولربما تفسّر السياسة المشار إليها، وإن جزئياً، بقاء تطوّر روابط الصين التجارية مع الهند عند مستويات أقلّ بالمقارنة مع شركائها الآخرين في «بريكس»، كروسيا وجنوب أفريقيا.

المفارقة أيضاً أن التقارير الغربية بدأت تسبغ ملامح اقتصادية على هذا «الانشقاق» أو «الفرادة» الهنديَّين من منطلق نسب النمو المرتفعة التي أصبح يسجّلها الاقتصاد الهندي خلال السنوات الأخيرة، بمستويات تقارب ما كانت تحقّقه الصين قبل نحو 15 عاماً، في مقابل تباطؤ اقتصادي تسجّله اقتصادات المجموعة، كروسيا الخاضعة لعقوبات غربية.

وشأنها شأن «هند مودي» التي لطالما سكنها خوف من تحوّل المنظّمة إلى «ناطق باسم المصالح الصينية»، أبقت البرازيل في عهد الرئيس «اليميني» السابق نفسها على مسافة من «زملاء بريكس»، لأسباب تتعلّق بعدم الرغبة في استفزاز الغرب، في حين لا يكفّ خلفه، الرئيس الحالي لويس إيناسيو لولا دا سيلفا، عن إعطاء إشارات في شأن سيره في الاتجاه المعاكس. وهي إشارات ضمّنها في خطاب حماسي ألقاه في مقرّ «بنك التنمية الجديد»، في شنغهاي، في نيسان الماضي، شدّد فيه على ضرورة الحدّ من دور الدولار في التبادلات التجارية الدولية.

توسيع التكتّل بات أولوية في حدّ ذاته، لأسباب جيوبوليتيكية واقتصادية في آن (أ ف ب)

دلالات توسيع العضوية: نجاح روسي - صيني

وفي أعقاب الانضمام الرسمي لدول شرق أوسطية عدّة، في طليعتها مصر وإيران، العام المقبل، يتفّق محلّلون على أن توسيع «بريكس»، لتضمّ دولاً نفطية مهمّة، من مثل السعودية والإمارات، على وقع انتظار دول أخرى ذات اقتصادات وازنة (نيجيريا وإندونيسيا) دورها أيضاً، من شأنه أن يربط اقتصادات كبريات الدول المنتجة للنفط في العالم، مع اقتصادات أكبر الدول المستهلكة للخام، وعلى رأسها الصين. وقد يسهم ذلك في تعزيز النفوذ الاقتصادي والسياسي لهذا المنتدى الدولي الصاعد، من خلال إتاحة فرص أكبر أمامه لتحدّي هيمنة الدولار في تجارة النفط والغاز، والتحوّل إلى عملات دولية أخرى، فضلاً عن تدعيم حظوظه في فرض إعادة تشكيل الاقتصاد العالمي.

وما يسترعي الانتباه، هو أن أعضاء المجموعة «الأوائل» الذين تكتّلوا بادئ الأمر حول بعض المشتركات الاقتصادية (تماماً كما هو حال «مجموعة السبع» المحسوبة على الشمال الغني) - عند تفعيل عمل المنتدى في أعقاب الأزمة المالية العالمية عام 2008 -، كأرقام الناتج المحلّي المتصاعدة بوتيرة قياسية، ومعدّلات النمو المرتفعة، تبدو اليوم الخلفية السياسية واضحةً في موافقتهم على ضمّ أعضاء جدد ممّن يتمتّعون بمؤشّرات أداء اقتصادي متفاوتة إلى حدّ كبير، في الوقت الراهن. ولعلّ ذلك يعدّ بمثابة دليل على أن توسيع التكتّل بات أولوية في حدّ ذاته، لأسباب جيوبوليتيكية واقتصادية في آن، أقلّه بالنسبة إلى أعضائه البارزين، كروسيا والصين، ولا سيما أن كلا الدولتَين تحبكان، منذ سنوات، استراتيجية طويلة الأمد للحدّ من استخدام الدولار في التعاملات التجارية الدولية، بغية حرمان الأميركيين من استخدامه كسلاح للإضرار بمصالحهما.

على أي حال، توسيع «بريكس»، والذي وصفه الرئيس الصيني، شي جين بينغ، في خطابه أمام قمة جوهانسبرغ، بـ«التاريخي»، وذلك توازياً مع انتقاده الضمني للسياسات الأميركية ذات النهج «الإقصائي»، فضلاً عن تكراره الاتهامات لواشنطن بـ«تقويض سلاسل التوريد»، يراه الباحث في «صندوق مارشال الألماني»، وهو مركز بحثي مقرّه الولايات المتحدة، أندرو سمول، بمثابة «الاندفاعة الأكثر وضوحاً وصراحة من جانب شي لتحويل بريكس إلى إحدى أدوات مناهضة الهيمنة (الغربية)»، المتمثّلة بصورة أساسية في النظام المالي العالمي، الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة. وبحسبه، فإن ما جرى بنذر ببدء العمل على «تأسيس هياكل (اقتصادية) بديلة غير غربية» للتجارة بين دول العالم النامي، كسبيل أساسي لتجاوز العقوبات التي تفرضها واشنطن وحلفاؤها على كثير من الدول.

وعلى رغم إشارته إلى اختلافات في الرؤى بين بلدان المجموعة، يعتقد سمول أن توسيع «بريكس» «يشكّل جزءاً من الرهانات طويلة الأمد للصينيّين»، لافتاً إلى أن الأخيرين «يعتقدون أن علاقاتهم مع الغرب ستواصل تدهورها قدماً»، وأن «مستقبل العلاقات مع العالم سيكون متمركزاً إلى حدّ كبير في العالم النامي، ما يجعلهم يسعون خلْف إيجاد طرق لإضفاء الطابع المؤسّسي على الأنظمة (المالية البديلة) المرنة وترسيخها».

وفي مقابل انتهاج بكين «استراتيجية كسب صوت العالم النامي (الجنوبي)»، من منطلق خلافاتها مع الأوروبيين والأميركيين، يعتبر بعض الباحثين الصينيين أن الولايات المتحدة صرفت انتباهها عن الدول النامية، بخاصة «مجموعة العشرين»، لمصلحة التركيز على أهدافها ضمن منتدى «السبعة الكبار» لدعم كييف، في وجه روسيا من جهة، ومواصلة «حروبها التجارية» مع الصين من جهة ثانية، ما مهّد الطريق أمام «بريكس» لتقديم نفسها كممنبر أفضل للدول النامية الكبيرة للتعبير عن تطلّعاتها وأهدافها. في هذا الصدد، يلفت المحلّل السياسي الصيني، مينغ جينوي، إلى أن فعاليات قمّة جوهانسبرغ بعثت برسالة واضحة إلى الولايات المتحدة وحلفائها، مفادها بأنه «لا يمكنكم احتواء الصين أو قمعها، لأن لديها أصدقاء في جميع أنحاء العالم».

على المقلب الآخر، تحذّر مصادر دبلوماسية من أن «قبول انتساب دول جديدة إلى التكتّل، من دون معايير واضحة، بخاصّة على الصعيد الاقتصادي، قد ينطوي على مخاطر تحوّله إلى هيئة غير فاعلة تتنازعها تباينات جوهرية في مصالح أعضائها، كما حدث في حالة

> **من شأن ضمّ بلدان نفطية مهمّة إلى «بريكس» أن يربط اقتصادات كبريات الدول المنتجة للنفط في العالم، مع اقتصادات أكبر الدول المستهلكة للخام**

الاتحاد الأوروبي لدى توسّعه بين عامَي 2004 و2007».

ماذا عن البرازيل وجنوب أفريقيا والهند؟

في ما يخصّ موقف أعضاء المجموعة الآخرين، كالبرازيل وجنوب أفريقيا، من مخرجات قمّة جوهانسبرغ، تشير مجلّة «نيوزويك» إلى أن تكتّل «بريكس» «أصبح محور جذب حالياً لجميع الدول التي ترى أنه يمكنها اكتساب المزيد من مقوّمات القوّة، إذا ما تحالفت مع بلدان التكتّل الأخرى لمواجهة التدابير القسرية والجزائية التي داب عليها الغرب لسنوات خلت»، مشيرة إلى أن «ثمّة وجهة نظر تلقى تأييداً متزايداً بين قادة بريكس، بمن فيهم الرئيس البرازيلي، تتلخّص في أن وجود مجموعة أقوى، يعني بالضرورة وجود مجموعة أكبر من حيث عدد الأعضاء». وفي هذا الإطار، يتوقّف مدير برنامج الأميركيتَين في «مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية» (CSIS) في واشنطن، ريان بيرغ، عند ما يصفه بـ«الاهتمام المتزايد بالطبيعة الجيوبوليتيكية للتكتّل» من قِبَل أعضاء هم أقرب تاريخياً إلى تبار عدم الانحياز في التكتّل، كالبرازيل، واضعاً الأمر في إطار محاولة برازيليا الردّ على تهميشها وتجاهلها من قِبَل العواصم الغربية.

أمّا بخصوص دلالات موقف حكومة رئيس الوزراء الهندي، ناريندرا مودي، المؤيّد لتوسيع التكتّل، على رغم كونه أحد أبرز حلفاء واشنطن، فقد لاحظ «مركز أبحاث السياسة العامة»، ومقره نيودلهي، ما سمّاه «ظاهرة التنافس بين القوى الكبرى على خطب ودّ بلدان الجنوب العالمي»، وأن «الجزء الرئيس» ممّا شهدته قمّة جوهانسبرغ، «لم يكن في خيار التوسّع في قبول طلبات العضوية فحسب، بل في تبلور رؤية لتأسيس عملة مشتركة، ما من شأنه أن يعزّز التزام المجموعة بالتقدّم المستدام طويل الأمد لدول الجنوب العالمي، إضافة إلى تعزيز التجارة بين دول التكتّل، والتخلّص من الأعباء الباهظة المترتّبة على تحويل الدولار لإجراء التعاملات التجارية الدولية (مع دول من خارجه)».

بدوره، يعتقد مدير برنامج «CSIS Africa» للبحوث الاستراتيجية، مفيميا فيزو ديزولييلي، أن ضمّ أعضاء جدد إلى التكتّل «عزّز مكانة جنوب أفريقيا بين دول عدم الانحياز». ويرى أن الهدف الرئيس للمشاركين في القمّة تعلّق بـ«مناقشة خيبة أملهم حيال دور الولايات المتحدة القيادي في النظام العالمي، والتحالف الدولي (الغربي) الذي تتزعّمه، وتبعاته السلبية على دول الجنوب العالمي»، في إشارة إلى إخفاق السياسات «التنموية» لـ«صندوق النقد» و«البنك» الدوليَّين، وكذلك الهيئات الأميركية الحكومية، معتبراً أنه «آن الأوان الذي يبدأ فيه هؤلاء سعيهم خلف بديل لتلك القوّة الدولية المتمثّلة بالولايات المتحدة».

في المقابل، وعلى رغم ما تبديه دوائر صنع القرار في إدارة الرئيس الأميركي، جو بايدن، من ردود فعل فاترة حيال فعاليات التكتّل، لا تخفي دوائر أكاديمية أميركية قلقها من التداعيات السلبية لمضيّ واشنطن في تجاهلها لبلدان الجنوب العالمي، معتبرة أن حجم نفوذ بلادهم في تلك الهياكل سيرتبط إلى حدّ بعيد، بمدى استعدادها للاستماع إلى هواجس البلدان المشار إليها.

الحدث

إردوغان يلتقي بوتين... أخيراً: أنقرة تستعجل استرضاء موسكو

محمد نور الدين

أخيراً، يشدّ الرئيس التركي، رجب طيب إردوغان، رحاله، لبلتقي نظيره الروسي، فلاديمير بوتين، في سوتشي الروسية المطلّة على البحر الأسود، الاثنين المقبل (4 أيلول)، بعدما كان لقاؤهما منتظراً خلال شهر آب المنصرم. وكانت أسهم اللقاء ارتفعت أخيراً، على رغم ما أثارته مواقف إردوغان من إسطنبول وفيلنيوس التي استضافت قمة «حلف شمال الأطلسي» في 12 تموز الماضي، من سخط لدى موسكو، لما حملته من انحياز إلى الجانب الأوكراني ومن خلفه الغربي. وحمل الاستياء الروسي، أنقرة، على محاولة رأب الصدع مع موسكو قبل تفاقمه، ولا سيما مع انسحاب روسيا من اتفاقية حبوب البحر الأسود، والتي تعهّدا تركيا إنجازاً دبلوماسياً لها.

وخلافاً لإردوغان، لم يبدُ بوتين مستعجلاً للقاء نظيره، على رغم أنهما تحادثا هاتفياً واتّفقا على اللقاء خلال شهر آب. لكن وزير الخارجية التركي، حاقان فيدان، عاد وأعلن أن اللقاء سيكون في أيلول، قبل توجه إردوغان إلى الهند للمشاركة في قمة «مجموعة العشرين» الاقتصادية، ومن ثم إلى «الأمم المتحدة». وفي السياق، يقول الخبير في العلاقات التركية - الروسية، أيدين سيزير، إن العمل على عقد القمة قبل الثامن من أيلول كان بـ«إلحاح تركي»، لأن «تأجيلها إلى ما بعد هذا التاريخ من شأنه إبراز مشكلة مستعصية وكبيرة بين تركيا وروسيا، خاصة بعدما روجت تركيا أن بوتين كان سيأتي إلى تركيا في أوائل آب قبل أن يتضح أن هذا ليس مؤكداً».

وبينما الأنظار شاخصة إلى اللقاء، لترقّب مآل العلاقات الثنائية، ومستقبل القضايا الشائكة المطروحة من مثل التوصل إلى اتفاق جديد لنقل الحبوب إلى العالم، وأمن البحر الأسود، والوضع في القوقاز وسوريا، يبدو أن تركيا عملت جاهدة لتذليل العقبات بين البلدين قبل الاتفاق على موعد اللقاء، وذلك من خلال زيارة قام بها وزير الخارجية التركي إلى كييف، ومن ثم إلى موسكو، انتهت أمس الجمعة.

وفي خلال زيارته، ذكّر فيدان بالجذور القديمة للعلاقات بين تركيا وروسيا، اللتين وصفهما بـ«الأكثر فهماً لبعضهما البعض» في المنطقة. وحول مسألة اتفاقية الحبوب، شدد فيدان على أهمية فهم المطالب الروسية، كاشفاً أن بلاده «ستقدم اقتراحاً» في هذا الشأن بالتعاون مع الأمم المتحدة، من دون الخوض في تفاصيله. ولفت إلى أن الهدف من محادثاته مع نظيره الروسي، سيرغي لافروف، هو العمل على استقرار بناء في المنطقة، قائلاً إن زيارته إلى كييف تناولت الأهداف نفسها.

ومن جهته، ذكّر لافروف، خلال المؤتمر الصحافي المشترك مع فيدان، بالشروط الروسية التي من شأنها أن تعيد العمل باتفاق الحبوب، قائلاً: «نقلنا إلى شركائنا الأتراك مفهومنا حول ما يجب القيام به في الغرب قبل كل شيء، من أجل استئناف هذه المبادرة». وأكد لافروف استمرار التعاون مع تركيا في مجال الطاقة من خلال مفاعل «آق قويو» النووي قرب مرسين، ومضاعفة كميات الغاز التي تصدّرها روسيا إلى تركيا، بالإضافة إلى العمل على رفع حجم الواردات الروسية من الخضار والفواكه التركية، مشيراً إلى أن حجم التبادل التجاري ازداد خلال عام، أكثر من تسعين في المئة. وإذ ثمّن لافروف السياسة الخارجية التركية «ذات السيادة»، نقل عن بوتين قوله إن روسيا لن تسمح أبداً بتعريض الأمن التركي للخطر تحت أي ظرف من الظروف.

وحول مسالة الحبوب، كشف لافروف عن اقتراح بلاده نقل الحبوب الروسية بحدود مليون طن إلى تركيا حيث تتمّ معالجتها، ومن ثم تصدر إلى الدول الفقيرة، مبيّناً أن هذا المقترح يمكن أن يتحقق بدعم مالي من دولة قطر. لكن مستشار الرئاسة الأوكرانية، ميخايلو بودولياق، وصف الاقتراح الروسي بأنه «غير مقبول» كونه لا يشمل الحبوب الأوكرانية، معتبراً أن الأتراك يجهدون عبثاً لإقناع روسيا باتفاقية جديدة مناسبة، بل يظهرون «دونية» في المفاوضات، و«هذا يقلّل من احترامهم»، بحسبه. إلا أن أنقرة، في الواقع، ترى أن أفضل وسيلة لمنع انتشار الحرب في البحر الأسود هو التوصل إلى اتفاقية جديدة لنقل الحبوب، وفق ما تكتب صحيفة «ميلليات» التركية، ناقلةً عن مصدر دبلوماسي أميركي، لم تذكر اسمه، قوله إن الولايات المتحدة «ليست جزءاً من المفاوضات بين تركيا وروسيا وأوكرانيا ولكن خبراءها على تنسيق كامل مع تركيا والأمم المتحدة». وإذ تلفت إلى أن «العمل جارٍ» على خطة تصدير الحبوب الأوكرانية عبر نهر الدانوب بالتنسيق مع رومانيا ومولدوفا، فهي تذكّر بأن الغرب، منذ أن أعلنت روسيا اعتبار السفن الأوكرانية كلها أهدافاً حربية، «يبحث عن خطة بديلة لاتفاقية الحبوب»، وخصوصاً أنه «لم تصل سالمة من موانئ أوكرانيا إلى تركيا سوى سفينتين مذاك». غير أن تركيا تعتقد أن خطّة الطريق البديل ليست عملية ولا بديلة من الاتفاق السابق، كما قال فيدان، مشيراً إلى أنها «عرضة لمخاطر كثيرة».

> **محادثات إردوغان - بوتين لن تقتصر على مسألة الحبوب، بل ستتناول إمكانية البدء بمفاوضات سلام بين موسكو وكييف**

على أي حال، تعكس الحركة المكوكية لفيدان إصراراً تركياً على تحقيق إنجاز دبلوماسي جديد من شأنه أن يعوّض انهيار الإنجاز الأول، ويُعيد التوازن إلى علاقات أنقرة مع موسكو. وفي ظل تحديد موعد للقاء إردوغان مع بوتين، تبدو الأجواء إيجابية ومهيأة لإحداث اختراق بالفعل، من دون أن يكون محتوماً التوصل إلى اتفاقية جديدة، نظراً إلى أن الولايات المتحدة لا تزال تعارض تقديم تسهيلات مالية لصادرات الحبوب الروسية إلى العالم، إلا إذا تنازلت روسيا كرمى لمواصلة العلاقات مع تركيا، وهذا ما لا يزال غير واضح المعالم.

على أن محادثات إردوغان - بوتين لن تقتصر على مسألة الحبوب، بل ستتناول أيضاً إمكانية البدء بمفاوضات سلام جديدة بين موسكو وكييف في ظلّ المراوحة الحالية. إلا أن لافروف وصف «المبادرات التي تهدف إلى الترويج لما يسمى بصيغة زيلينسكي للسلام»، بـ«غير المقبولة والفاشلة بشكل واضح»، موضحاً لنظيره التركي سبب «استحالة الاعتماد على الجهود المبذولة في هذا الشأن». كذلك، سيكون التوتر في القوقاز بين أذربيجان وأرمينيا في صلب المحادثات، ولا سيما مع تصاعد التوتر بسبب إغلاق الأولى ممر لاتشين بين الأخيرة وناغورنو قره باغ، والحصار الذي تتعرض له منطقة الحكم الذاتي الأرميني، وإصرار باكو ومعها أنقرة على البدء بشق ممر زينغيزور بين تركيا وأذربيجان عبر الأراضي الأرمينية، وسط استمرار معارضة يريفان لذلك. وبحسب وسائل الإعلام التركية، فإن الوضع في سوريا لن يكون غائباً عن المحادثات، في ظلّ رغبة موسكو في مواصلة اجتماعات منصة «أستانا»، واتّخاذ إجراءات جديدة لتفعيلها، بناءً على أسس توافقية بين الدول الأربع (سوريا وتركيا وإيران وروسيا)، وبحث «خطوات استعادة العلاقات الدبلوماسية بين أنقرة ودمشق»، والتي ناقشها لافروف بالفعل مع فيدان. ومع ذلك، تستبعد التحليلات تحقيق تقدم في هذا المجال، في ظلّ تكثيف تركيا والتنظيمات المسلحة الموالية لها تحركاتها العسكرية قبالة مواقع الجيش السوري، ورفض أنقرة سحب قواتها من الأراضي السورية، ومواصلة الولايات المتحدة الضغط على تركيا لمنع أي اختراق في الملف السوري.

بيدوان تركيا عملت جاهدة لتذليل العقبات مع روسيا منذ خلال زيارة قام بها وزير خارجيتها إلى موسكو (أ ف ب)

صفيّة أنطون سعادة تتحدّث: عن الحزب وعائلة الزعيم

أسعد أبو خليك *

لم يحظَ كتاب صفية أنطون سعادة «الحزب والعائلة» بما يستحقّ من العناية والمراجعة. الكتابات عن تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي ليست قليلة لكنّ الجديد منها نادر. الكتاب يعطي صورة داخليّة من قبل أكاديميّة لبنانيّة (علي أن أقول «سوريّة» احتراماً لعقيدتها الصلبة) كانت أوّل لبنانيّة تنال دكتوراه في دراسات الشرق الأوسط من جامعة هارفرد. صفيّة سعادة، لمن يعرفها، صريحة وغير مواربة ولا تساير لأي سبب. الكتاب الذي بين أيدينا سيصبح مرجعاً مهماً في تاريخ الحزب، خصوصاً أنها لم تراع محظورات سياسيّة أو عقائديّة أو شخصيّة. هي قالت الحقيقة كما هي. وأسلوب الكتاب رائع من حيث بساطة التعبير وسلاسة السرد. وصفية لديها الكثير من الأسباب للغضب وحتى الحقد ضد قيادات الحزب في المرحلة التي تلت إعدام سعادة، لكنّ شخصيّتها لا تحمل الأحقاد وإن كانت لا تنام على الضيم.

وصفية ترسم صورة لـ«الزعيم» تغاير الصورة المرسومة عنه من قبل أعدائه وحتى من قبل مريديه. يحلو لأعداء الحزب في العقائد والصحف الرجعيّة حشر الحزب في خانة الفاشية والنازية، مع أن النسق اللبناني للنازية تمثّل في حزب الكتائب الذي لم يخفِ رئيسه إعجابه بهتلر والحركة النازية عند تأسيسه الحزب مباشرة بعد زيارته لبرلين في عام 1936. سعادة كتب ضد وضع الحزب في خانة النازية وفنّد المغالطة. تقول صفية إن الزعيم كان يشارك في الحراسة والمداورة في المهام مثله مثل أي عضو. والذي يقرأ مراسلات سعادة في عزّ زعامته للحزب يلاحظ أنه كان متواضعاً بدليل منحه وقته ومشورته لطلاب

> تحليل صفية للمرحلة التي سبقت اغتيال سعادة في لبنان منطقيّ، ويرد فيه أن رياض الصلح (الذي كان مطّلعاً على المفاوضات الصهيونيّة- السوريّة)، «قرّر التخلّص منه»

في الحزب. كانت تلك العلاقة التي ربطت بينه وبين هشام شرابي في مرحلة دراسة شرابي الجامعية. وهو لم يبخل بوقته على الأعضاء. هل تتصوّر محسن إبراهيم مثلاً أو جورج حاوي وهما يمنحان وقتاً لطلاب أو يترأسان معهم؟ مستحيل. الوحيد من قادة الحركة الوطنية الذي لم يكن يبخل بوقته للإجابة على أسئلة طلاب كان فواز طرابلسي، وأذكر ذلك بحكم التجربة الشخصية (لا أزال أحتفظ بإجابات طرابلسي المفصّلة والمطبوعة على آلة كاتبة لأسئلة متشعّبة طرحتُها عليه من منظور شاب يساري قلق من مسار وفساد الحركة الوطنية. وكنتُ قد اجتمعتُ بمحسن إبراهيم وطلبتُ إجابات عن تلك الأسئلة فما كان منه إلا أن أحالني على فواز طرابلسي. الأمين العام التنفيذي للحركة الوطنية مشغول بما هو أهم، مثل مناقشة العقيد القذّافي في الكتاب الأخضر في اجتماعات «فكريّة» كان العقيد يستدلّ في عقدها مع قادة الحركة الوطنيّة الذين كانوا يتلقّون منه العطايا المالية).

تقول صفية إنّ نمط زعامة سعادة كان يتناقض «جذرياً» (ص. 9) مع المفهوم التقليدي للزعامة. غادر الزعيم لبنان أثناء الانتداب فاستقرّ في البرازيل لكنّ «بعض اللبنانيّين الموالين للدولة الفرنسيّة» وشوا به فأرغِم على مغادرة البرازيل إلى الأرجنتين حيث استقرّ، وهناك ولدت صفيّة واليسار. الزعيم كوالد كان مُشجّعاً وبعيداً عن صورة الأب البطريركي. وحدّثتني صفية كيف أنه كان يصرّ على التحدّث مع بناته بالفصحى، ما شكّل مشكلة لهم في المدارس اللبنانيّة المتفرنجة. عاد سعادة إلى لبنان في عام 1947. لم تكن صفية تدرك حجم زعامة والدها. اعتبرت حضور الجماهير في حياة الزعيم «اجتياحاً لطفولتها» (ص. 12) وهي على حق. تقول إنها لا تزال تهرب من الظهور فيما «يتهافت عليها» غيرها. أتخيّل القلق المستمرّ الذي عاشته صفية وهي تسمع عن أخبار نيّات اعتقال والدها من قبل السلطات الظالمة. كيف ينشأ الطفل وهو لا يعلم عندما يعود من المدرسة إذا كان الوالد يبيت في السجن أم في المنزل؟ عن اعتقال سعادة تقول صفية إنه كان «بتواطؤ أميركي/صهيوني، مصري (الملك فاروق)، لبناني وحزبي» (ص. 13). لم يدم لقاؤها الأخير مع أبيها لأكثر من ساعة واحدة.

وتتحدّث عن وقع قضيّة فلسطين على والدها. الذي يعود إلى كتاباته في تلك الفترة بلمس كم كان سعادة متقدّماً على كل قادة الأحزاب (اليساريّة واليمينيّة على حدّ سواء) في تقييمه للخطر الصهيوني (وكان تقييمه للخطر الصهيوني تقييماً استراتيجياً قومياً وسياسياً وليس دينياً على عكس ما يروّج أعداء سعادة الذين يعتبرون أن إشارته إلى اليهود تختصر كل عقيدة معاداته للصهيونيّة ولمشروعها في منطقتنا). لم يأخذ قادة الشيوعيّة في عالمنا العربي الخطر الصهيوني على محمل الجدّ، أو بنفس درجة الجديّة التي حملها سعادة. في عام 1947 كان فرج الله يكتب أن صراعنا مع الصهيونيّة هو «صراع سياسي». كتب سعادة مقالته الشهيرة «العروبة أقلست» في عام 1949 في مجلّة «كل شيء» (كان امتيازها يعود لمحمد بعلبكي قبل أن يشتريها منه خالي، وفيق العلايلي، ثم انتقلت بعده إلى محمد بديع سربيه). في تلك المقالة يقول سعادة: «ذهبت كيلبكيا، ثم ذهبت إسكندرونة، ثم جاءت فلسطين، فكررتُ نداءاتي... لم يجتمع العالم العربي أمةً واحدة في فلسطين، وكرّت سبحة التسويات بين الدول العربيّة و«إسرائيل»».

وتحليل صفية للمرحلة التي سبقت اغتيال سعادة في لبنان منطقيّ، ويرد فيه أن رياض الصلح (الذي كان مطّلعاً على المفاوضات الصهيونيّة-السوريّة)، «قرّر التخلّص منه» لأن الحزب تناقض مع مشروع التسوية الذي كان رياض الصلح جزءاً منه (عندما واجه الإعلاميّون رياض الصلح بعد اجتماع للقادة العرب في القاهرة قبل أشهر من النكبة، طمأنهم إلى وجود خطة سريّة. برد ذلك في مجلة «المصوّر» المصرية). لم يكن إعلان سعادة للثورة نابعاً من إيمانه بالنصر بقدر ما أنه شعر بأن ذلك هو خياره الأخير نظراً إلى حجم الصعاب أمامه.

الصراع على خلافة الزعيم كان أبعد ما يكون عن العقيدة التي تركها سعادة. تتحدّث صفية عن صراع بين «الشوام» و«أمناء الكيان اللبناني». وتقول إن جورج عبد المسيح فاز بالزعامة لأنه الوحيد الذي كان عاطلاً عن العمل (ص. 23). تقول عنه إنه «حكم الحزب على الطريقة الستالينية والقبلية معاً: حكم مطلق، وإيديولوجية شمولية تجرف الخاص وتدمجه بالعام، ومنها إلغاء عائلة أنطون سعادة وسحقها باسم المؤسّسة الحزبيّة، واستعمال العنف لإسكات الأصوات المناوئة» (ص. 24). الأغرب في قصّة صفيّة أن عبد المسيح هذا استولى على عائلة الزعيم. هو احتجز أبناء العائلة رهائن تحت إمرته باسم العقيدة ولم يكن هناك اعتراض من أفراد الحزب. عانت العائلة الأمرّين وهي تعيش في ضيق تحت سلطة طاغية (بالمعنى السياسي والشخصي). كان يصفع صفيّة عندما تعترض على ظلمه. كانت تختبئ في الحمام كي تتجنّب عنفه. كيف لم نكن نعرف هذا الجانب من تاريخ الحزب؟ كيف ليس هناك من مراجعة حزبيّة رسميّة تصدر إدانة تاريخية لمرحلة جورج عبد المسيح؟ أصبحت أرملة سعادة رهينة لعبد المسيح يستخدم وجودها في المنزل الذي اقتحمه مصدراً لشرعيّة زعامته. فقدت العائلة خصوصيّتها وحوّلها عبد المسيح إلى أداة عامة. وكان بعض القوميّين يوافقون عبد المسيح على سلوكه فيقولون لصفيّة عن الزعيم: «هذا ليس والدك. هذا والدنا» (ص. 27). لا تبالغ صفية عندما تصف مرحلة قيادة عبد المسيح (1949- 1955) بأنها كانت مرحلة ابتعاد الحزب عن التقدمية والتغيير وتحويله إلى «طائفة مغلقة» (ص. 30). تحسّنت ظروف عيش العائلة في مرحلة أسد الأشقر. تتكلّم صفية عن مرحلة دراستها في الـ«كوليج بروتستانت» وكيف أن المعايير كانت طبقية في الحكم على التلميذات. كما عانت من ثقافة احتقار اللغة العربية في المدرسة. وعندما وقع الانقلاب، وفتح فؤاد شهاب الباب واسعاً أمام عمليّة اضطهاد ماركسيّة ضد القوميّين أو المتعاطفين معهم (لم تتّسع سجون لبنان للمضطهدين فجمّعوهم في ميدان المدينة الرياضيّة)، ألقت أجهزة فؤاد شهاب الإصلاحية القبض على تلميذة الجامعة، صفية سعادة. سمعت صفيّة أصوات التعذيب فيما لا يزال دعاة فؤاد شهاب يتحدّثون عن بناء الدولة (نعمل أنا وبدر الحاج على تجميع كتاب يوثّق لحملات اضطهاد القوميين الوحشيّة من قبل فؤاد شهاب).

تتحدّث صفية عن تغيّر تركيبة الحزب بعد تولّي إنعام رعد الرئاسة في عام 1975، فباتت الميليشيا هي عماد الحزب بعد أن كانت الطبقة الوسطى هي الأساس (ص. 53). وقبل الحرب، كان التمويل يعتمد على تبرعات الميسورين في الحزب، لكن ذلك تغيّر في زمن الميليشيا وأصبح التمويل يرد من أنظمة وقضى على استقلاليّة القرار. رعد كان أداة بيد عرفات، وقريباً جداً من النظام الليبي. رافقت صفيّة مجموعة من الإعلاميّين الغربيّين في جولة في المخيّمات الفلسطينية في لبنان وعمان فهالهم ثراء حركة «فتح» وذكوريّة القيادات فيها (ص. 57). لاحظت صفية أمراض منظّمة التحرير التي انتقلت من عمان إلى لبنان: «انفلاش» ظاهر ونزعة انتصاريّة لا تعتمد على عناصر قوة. أبدت خوفها من حصول مواجهة أردنيّة-فلسطينيّة، فأجابها المسؤول: «نحن على أتم الاستعداد ولدى المنظمة 50 ألف مقاتل» (ص. 58). عبّر قادة المقاومة الفلسطينيّة عن نفس نزعة الثقة بالانتصار في عام 1982، قبل أسابيع من هزيمة محت المقاومة الفلسطينيّة من الوجود، بعد أن تحدّث قادة المنظمة عن ستالينغراد.

وتتحدّث صفية بصراحة عن تجربتها في جامعة هارفرد وتقارنها بالجامعة الأميركية في بيروت فتقول: «مثّلت سنوات الدراسة في جامعة هارفرد الأميركيّة أغنى تجربة فكريّة مررتُ بها. في تلك الجامعة، تجسّدت حريّة الفكر المطلقة آنذاك، وظهرت لي الجامعة الأميركية في بيروت كمدرسة ثانويّة مهمتها التلقين للحصول على الشهادات، لا جامعة للمعرفة بالمعنى الحقيقي» (ص. 60). هنا أختلف مع صفيّة بشدّة. صحيح أن الدراسة الجامعية هنا تُشعر المرء بالاختلاف بين تلقين الجامعة الأميركيّة في بيروت والتلقين هنا. لكن هنا تلقين أيضاً لكنه أذكى وأقل صفاقة وأكثر رسوخاً. كما أن الحريّة في هارفرد وغيرها ليست مطلقة على الإطلاق بدليل استمرار حملات قمع الأصوات المؤيّدة لفلسطين. لم تكن صفية تملك المال وعملت في مكتبة الجامعة لتغطية نفقاتها. نالت صفيّة الدكتوراه وتقدّمت لطلب وظيفة في الجامعة الأميركيّة في بيروت. كان كمال الصليبي صريحاً: «فأجابني أنه يرفض رفضاً قاطعاً توظيف نساء في الجامعة» (ص. 72). علّمت في كلية بيروت الجامعية (آنذاك) ثم في الجامعة اللبنانيّة. وصفية ثائرة في الحياة بكل أوجهها. وتعبّر عن يأس من انتشار العقليّة الذكوريّة في بلادنا حتى إنها فقدت الأمل في نساء بلادنا إذ تقول: «اكتشفتُ بعد مضي سنة على قراءاتنا أن النساء في بلادي غير مستعدات للتضحية في سبيل الحصول على حقوقهن» (ص. 74). هذا تعميم ظالم.

عاشت صفية حرب تموز ونقلت أن الناس في سن الفيل انقسموا بين دعم إسرائيل ودعم المقاومة (أنصار التيّار). وعن مؤيّد لفؤاد السنيورة قالت: «كان يملؤه الحقد الطائفي ويفرح ضمنيّاً لأن «إسرائيل» تقتل من هم من غير طائفته». وعندما دمّرت إسرائيل جسوراً في «المناطق المسيحيّة» ثارت واحدة وقالت: «ما هذا؟ لماذا يقصفوننا؟ نحن مسيحيون ولا دخل لنا بهذه الحرب». صفيّة تنقل الحقائق كما هي، بلا تجميل. هذا الكتاب أساسي في تاريخ الحزب والحرب.

* كاتب عربي - حسابه على تويتر @asadabukhalil

«تجربة لبنان التنموية»

ننشر في هذا النص تقديم كتاب «تجربة لبنان التنموية»، للأكاديمي والباحث البير داغر، والصادر في بيروت عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، 2023:

يمكن تجميع المادة المكوّنة للكتاب أو فصوله تحت ثلاثة عناوين: الحقبة العثمانية وحقبة الاستقلال حتى 1975 وحقبة ما بعد 1990. وقد عُني الكتاب بالتعريف بالأدبيات التي كُتبت عن لبنان في حقل الاقتصاد. واستخدم أدبيات نظرية لتفسير التجربة اللبنانية والحكم عليها وإظهار ما كان ينقصها لكي تنجح كتجربة تنموية. ولعل أقصر طريقة لعرض محتوى الكتاب هو ذكر مساهمة كل من الباحثين الذين تمت الاستعانة بهم.

1. وبالنسبة للتجربة العثمانية، فقد أظهرت مساهمة إيمانويل فالرشتاين مع دسدلي وكاسابا كيف قبلت السلطنة العثمانية بأن تتحوّل خلال القرن التاسع عشر إلى اقتصاد تابع في النظام الدولي ينتج سلعاً زراعية للأسواق الغربية.

ولم يكن ممكناً قول شيء ذي جدوى حول التاسع عشر لو لم ننطلق من الإمبريالية كمفهوم لتبيان علاقة النظام الدولي ببلداننا ونخبها. وكانت الكتابات الأفضل والأكثر تأثيراً هي التي قدّمها رونالد روبنسون ورسمت صورة العلاقة بين دول المركز وبين النخب السياسية في البلدان المستعمَرة.

والنوع الثالث من الأدبيات التي أتاحت فهم التجربة العثمانية هي القراءة لطبيعة الإدارة العامة في كل من اليابان والسلطنة العثمانية. في الحالة الأول أنشأت اليابان إدارة عامة «فيبرية» قائمة على الاستحقاق حصراً، في حين كانت القاعدة في الإدارة العامة العثمانية خلق مواقع إدارية لتوزيع تنفيعات فحسب.

والنوع الرابع من الأدبيات هو الكتابات التي ركزت على إعادة تكوين الوقائع حول التجربة. وأهمها نصوص كارن باركي وإنجن اكارلي على وجه الخصوص. بالإضافة طبعاً إلى نصوص روجر أوين وكارولين غيتس، وأخرى أكثر حداثة كمساهمة ستيفانيا إكيا.

والنوع الأخير من الأدبيات هي تلك النظرية التي قدمها تيار المؤسساتية المقارنة ممثلاً على وجه الخصوص بـ بيتر إيفانز. وقد قدّم هذا التيار إضافة هائلة لفهم دور الدولة التاريخي في التنمية. واعتبر أن شروط نجاح التنمية بوصفها «تحويلاً صناعياً» هي أولاً استقلالية الإدارة العامة. والدولة العثمانية لم تكن مستقلة لأنها كانت تحت رحمة أعيان الأقاليم.

والشرط الثاني هو مقدرتها الإدارية، وهي كانت منعدمة في السلطنة العثمانية لأن بناء الإدارة العامة كان يخضع فيها لمنطق توزيع التنفيعات وليس بناء الاقتصاد المنتج. والشرط الثالث هو شكل انخراطها في النظام الدولي، وهو انخراط كان من موقع تابع ويقطع الطريق على إمكان إشراع تنمية بوصفها «تصنيعاً متأخراً».

2. في الجزء الثاني من الكتاب المخصّص لحقبة الاستقلال حتى 1975، هناك أولاً مسح للأدبيات التي تناولت تجربة لبنان. وفيه استعادة لكتابات كل من كتبوا عن الحقبة، واستعادة في الوقت عينه للنقاش الفكري حول الاقتصاد. وأظهر هذا الأخير غياباً للنقاش التنموي بالفعل لأنه لم يكن في أوساط المثقفين اللبنانيين مختصون يدلون بدلوهم في هذا الموضوع.

وكان حضور ثلاثة باحثين هم روجر أوين وكارولين غايتس وإيرين غندزير طاغياً في استعراض التجربة من الاستقلال إلى أواخر الخمسينيات. ولعرض تجربة الستينيات أو الحقبة الشهابية، جرى استخدام اسهامين على وجه الخصوص، هما كتاب ألبير داغر لعام 1995 ومساهمة سليم نصر لعام 1978. ووفّر المرجعان كماً من الوقائع أظهرت، في ما يتجاوز الإنفاق الشهابي على تطوير البنى التحتية للمواصلات وكهربة الريف وتوفير مياه الشفة، كيف تسبّب انعدام وجود تصوّر لدى الدولة لكيفية تنمية الزراعة والريف بإفراغ الريف من أهله خلال عقد واحد من الزمن. وقد ذهب هؤلاء إلى المهاجر. ولعل الأمر الذي أراد الكتاب التعبير عنه أكثر من غيره، هو أن تجربة لبنان التنموية منذ الخمسينيات حصلت ضد الريف. أو أن الريف وأهله كانوا ضحيتها الأولى والرئيسية.

ويسهم استعراض مواقف من كتبوا من الاقتصاديين حول تجربة لبنان في تأكيد المنحى المعادي بشدّة للريف في التجربة اللبنانية، ومن بين هؤلاء على وجه الخصوص ميشال شيحا. والفصول المخصصة لهذه الحقبة تناولت أيضاً ما كان يمكن فعله لكي لا يكون الريف هو الضحية. وذلك تحت عنوان «السياسات الزراعية تحت إشراف الدولة». وجرى الاستناد إلى جهد هـا-جون شانغ الشيق لتوضيح هذا الأمر.

3. أما تجربة ما بعد 1990، فقد استعادت حرفياً عنصرين من تجربة لبنان قبل 1975. أولهما انحصار الاستثمار الحكومي في خدمات بعينها هي المواصلات (مطار بيروت الدولي والأوتوستراد الساحلي) والإتصالات (التلفون) والكهرباء، كما كان الأمر في مطلع الاستقلال. وثانيهما هو الأولوية المعطاة لضمان مصالح «أصحاب الريوع المالية» أي القطاع المصرفي. وهو الوحيد الذي ازدهر وسط الكساد العام والمتمادي الذي كان وراءه الإمتناع عن بناء اقتصاد منتج.

والكاتب مدين لـ كينز ومدين خصوصاً للتيار ما-بعد الكينزي في استخدام مفهوم «رأسمالية أصحاب الريوع المالية» أو «الرأسمالية الريعية» (capitalisme de rentiers) لتوصيف تجربة لبنان.

وكان لا بد من استخدام بضعة مفاهيم رائجة لتعريف حقبة ما بعد 1990. أولها مفهوم «المقاربة الودية تجاه قوى السوق» الذي بلوره البنك الدولي واعتمدته حكومات الرئيس الشهيد رفيق الحريري للتعريف بالسياسات المأخوذ بها. وهو يعني باختصار امتناع الدولة عن دعم الصناعة بإجراءات تتناولها مباشرة، وبما يتجاوز الاستثمار في البنى التحتية والتعليم والصحة.

والمفهوم الآخر المعتمد هو «مؤشر سعر الصرف الفعلي الحقيقي». وهو شيء آخر مختلف تماماً عن سعر الصرف الإسمي، أي سعر الدولار بالليرة. وهذا الأخير كان مثبّتاً، في حين كان الأول يرتفع على امتداد الحقبة رافعاً كلفة الإنتاج في القطاعات المنتجة وجاعلاً الاستثمار فيها غير ممكن.

لكن تجربة ما بعد 1990 أضافت عنصرين إضافيين مقارنة مع تجربة ما قبل 1975. أولهما تحرير التبادل التجاري مع الخارج الذي حققته حكومة الرئيس الحريري الرابعة عام 2000. وهو تحرير كان من شأنه الإجهاز على القطاع الصناعي أو ما بقي قائماً منه بعد 1990.

والعنصر الآخر هو وضع السياسيين يدهم على الإدارة العامة وإفراغها بالكامل من مقدرتها الإدارية. وهي لم تعد سوى ميداناً لـ «الممارسات الإجرامية» ممثّلة بالفساد السياسي والإداري.

وكان لا بد من إنهاء العرض حول تجربة لبنان التنموية بعرض حول الأزمة المالية الراهنة التي تقتلع لبنان من جذوره. وهنا كان التركيز على تطور مكوّنات ميزان المدفوعات وتحوّل الفائض فيه على مدى عقدين بعد 1990 إلى عجز خلال العقد الأخير. وأعطى ذلك مبررات للمؤسسات الخارجية، أي «الصندوق» و«وكالات التصنيف» للتعبير عن مواقف أسهمت في هروب الودائع واندلاع الأزمة.

ووفّر استخدام مساهمة غابرييل بالما الهامة حول سوء استخدام التدفقات المالية الخارجية كسبب للأزمات المالية قراءة مقارنة، تمّ اعتمادها لقراءة الأزمة المالية في لبنان.

البلاد

تطورات الضفّة: نحو فهم أدقّ للمُستعمَرة وأدواتها

خالد بركات

أيّ قراءة شاملة لجذور التطورات الجارية في فلسطين المحتلة، وخصوصاً في الضفة والقدس، يجب أن تنطلق من عام 2005 – 2006. لماذا هذه السنة بالتحديد؟ لأن تحولات سياسية وميدانية نوعية وقعت في تلك الفترة على الصعيد الداخلي الفلسطيني وتحولات داخل مستعمرات الكيان الصهيوني وفي المنطقة، أسّست للتطورات الراهنة.

ففي عام 2005 خمدت نار الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى 2000 – 2005) وانتهت «مرحلة ياسر عرفات» وبدأت مرحلة من السلب جديدة، مع صناعة «الفلسطيني الجديد» وتسلّم محمود عباس وفريقه «مفاتيح السلطة»، حيث شهدنا إعادة هيكلة شاملة للأجهزة الأمنية الفلسطينية على يد الجنرال الأميركي كيث دايتون.

وفي تلك الفترة أيضاً حصلت الانتخابات التشريعية 2005 – 2006 التي فازت فيها «حركة حماس» قبل وقوع ما يُسمى «الانقسام الفلسطيني» أو «الحسم العسكري» ودخلت غزّة حالة غير مسبوقة من الحصار، وما تلاها من حروب شاملة مستمرة.

وفي تلك الفترة حصل تطور نوعي آخر وجديد، تمثّل في بداية تشكيل مجموعات ومنظمات صهيونية مسلّحة داخل المستعمرات الصهيونية في الضفة والقدس، وصلت اليوم إلى نحو 12 منظمة ناشطة في المستعمرات.

ولو عدنا إلى تاريخ إنشاء هذه المنظمات الصهيونية التي أفرزت شخصيات مثل بن غفير وسموتريتش وغيرهما، لوجدنا أن معظمها عصابات مسلحة متطرفة تأسّست في عام 2005. كما يجب ألا ننفل حرب تموز 2006 وما كان لها من نتائج على لبنان وفلسطين والمنطقة.

المستعمرات الصهيونية في الضفة المحتلة

لقد شهدنا في العقدين الأخيرين تسارعاً غير مسبوق في دورة عجلة الاستيطان الصهيوني وسرقة الأرض والسيطرة على القدس. هذه الهجمة الصهيونية هي الأكبر والأخطر على صعيد أسرلة وتهويد المدينة المقدّسة.

كما رأينا انتقال المستوطنين الصهاينة في الضفة والقدس إلى مرحلة جديدة من العدوان المنظّم المسلح، وتأسيس منظمات عسكرية (بارا ميليتري) وقوات «غير نظامية» لها هيكلة داخلية وقيادة مركزية ومواقع حساسة في جهاز الدولة الصهيونية، تحظى برعاية وحماية الجيش والحكومة والأجهزة السياسية وصولاً إلى الكنيست.

ومهم في هذا السياق تبيان عملية تبادل الأدوار، والتقاسم الوظيفي بين هذه المنظمات المسلحة وقوات الاحتلال النظامية، إلى درجة تداخل المهام بينهما. وإذا كنا في العادة نطل على المستوطنات الصهيونية من خارجها صار يجب رؤيتها ورصد حركتها من الداخل أيضاً.

بلغ عدد المستوطنين في الضفة الغربية المحتلة حوالى 750 ألفاً موزّعين على 176 مستعمرة، ونحو 200 بؤرة استيطانية (نواة مستعمرة) أقيمت 10 منها خلال عام 2022، كما صادقت حكومة الاحتلال على 83 مخططاً لبناء 8300 وحدة استيطانية جديدة في الضفة الغربية، و2600 وحدة في القدس المحتلة، وصادر العدو نحو 27 ألف دونم تحت مسميات مختلفة: إعلان محميات طبيعية، أوامر استملاك واعتبارها أراضي دولة، ومناطق أمنية...

ولو أخذنا منطقة «مسافر يطا» كمثال، فهذه منطقة تضُم 12 تجمعاً سكانياً عربياً على جبال محافظة الخليل الجنوبية، يسعى الاحتلال منذ سنوات لتهجير سكانها البالغ عددهم نحو 3 آلاف لصالح توسيع 10 مستعمرات وبؤر استيطانية بحجة مناطق «تدريب للجيش وإطلاق نار» والهدف الصهيوني هو ذاته منذ بدء حركة الاستيطان الصهيوني في فلسطين: تفريغ المنطقة من سكانها العرب من خلال خلق بيئة معادية وطاردة.

يستدعي ذلك تنشيط ذاكرتنا حول حقيقة جدار النهب والضم (ما يسميه البعض جدار الأبارتهايد) الذي يحمي المستعمرات الصهيونية ويؤمّن شبكة الطرق الخاصة باليهود فقط. هذا الجدار قسّم الضفّة إلى ثلاث كتل سكانية فلسطينية:

كتلة شمال الضفة: تضم نابلس وجنين وطولكرم (حيث تتصاعد المقاومة المسلحة)

كتلة الوسط: رام الله والبيرة

الجنوب: الخليل وبيت لحم

ومن المفيد التذكير بأننا لا نتحدّث هنا عن مدن فلسطينية، بل عن محافظات تشمل مدناً وقرى وبلدات صغيرة ومتوسطة، ومخيمات ومناطق زراعية ومياهاً ومصادر وثروات طبيعية...

جرى تقسيم هذه الكتل الثلاث إلى ستة «كانتونات»، وتجزئة «الكانتونات» إلى نحو 70 منطقة فلسطينية محاصرة ومعزولة، تقع جميعها تحت السيطرة المباشرة للجيش الإسرائيلي. وهذا يعني قدرة الجيش على عزل كل منطقة بسهولة ويسر، وبعني كذلك منع التواصل العمراني الجنوبي لمحافظة رام الله والبيرة، ومنع التواصل الشمالي لمحافظة بيت لحم، كما جعل من قيام دولة فلسطينية في عام 1967 محض أوهام وخدعة كبرى، وعمل الجيش أيضاً على تحويل حياة الناس في الضفة والقدس إلى جحيم حقيقي لدفعهم إلى الهجرة أو الاستسلام.

المنظّمات الصهيونية المسلّحة العاملة داخل المستعمرات:

منظمة «شبيبة التلال»

ظهرت هذه المنظمة بعد النداء الشهير الذي أطلقه وزير الطاقة في حكومة بنيامين نتنياهو الأولى (مجرم الحرب المعروف أرئيل شارون) بذريعة معارضته مسار التسوية مع ياسر عرفات، إذ وجّه شارون نداء إلى «شباب المستوطنين» دعاهم إلى احتلال التلال».

(أ ف ب)

أعالي الجبال والتلال في الضفة، وتصريحه الشهير «إن ما نضع أيدينا عليه اليوم سيبقى لنا، وما لا نضع أيدينا عليه، سيذهب للفلسطينيين».

يقوم أفراد هذه المجموعة بعمليات إجرامية منظمة بين الفينة والأخرى ضد السكان الفلسطينيين في القرى المحاذية للمستوطنات والبؤر الاستيطانية، بحماية ومساندة جنود الاحتلال الإسرائيلي.

منظمة «جباية الثمن»

بدأ نشاط هذه المنظمة أواسط عام 2008، بعد اجتماع دعت إليه مجموعة من نشطاء المستوطنين المتطرفين في مستوطنة «يتسهار» جنوب مدينة نابلس، للاتفاق على استراتيجية عمل للمستوطنين

مع تصاعد الاستيطان والعدوان الصهيوني من جهة، وتصاعد المقاومة وعملياتها (الفردية والخلايا المنظمة) بدأت تتكشّف أزمة طبقة الراسمالية الفلسطينية التابعة، وتبدو واضحة جداً أمام الجماهير

المدارس الدينية (اليشفوت).

منظمة «لاهَفا» الصهيونية

تدعو علانية إلى هدم الأقصى، وتقوم بعمليات تخريب لتحقيق هذا الهدف. وهي صهيونية متطرفة، رئيسها الحالي المستوطن المتطرف بن تسيون غوبشتاين، والمعروف أنه أحد تلامذة الحاخام الصهيوني كهانا مؤسس منظمة «كاخ» المحظورة.

اسم منظمة «لاهَفا» يعني «النار» أو «اللهب» باللغة العبرية، وهو اختصار لاسمها «منظمة منع الدينية» وتأييده، وهو الذي يتزعّمه بتسلئيل سموتريتش، أحد أبرز السياسيين الإسرائيليين المتطرفين من ذوي الميول الفاشية وأخطرهم، وإذ دعا إلى حرق بلدة حوارة إلى الجنوب من مدينة نابلس، في موقف أثار غضب أوساط دولية واسعة، كما تهدف بأنشطتها الاستيطانية إلى الوصول إلى توطين مليوني مستوطن في الضفة الغربية.

تنظيم «تمرد»

أحد أكثر المنظمات الصهيونية إرهاباً وتطرفاً، وانبثق من منظمة «شبيبة التلال» الصهيونية المتطرفة، بصورة أكثر تنظيماً وتشدداً، يتزعّمه مئير إتينغر حفيد الحاخام المتطرف مئير كهانا، ويضم في صفوفه شباناً صغاراً في سن 16 إلى 25 عاماً، وتخترهم بعناية فائقة قيادة التنظيم، ويعقدون اجتماعاتهم بسرية تامة.

يعمل التنظيم في الضفة الغربية، ويتركز معظم أفراده في البؤر الاستيطانية العشوائية المنتشرة على التلال والجبال الفلسطينية، ومن أبرز جرائم هذا التنظيم: إحراق عائلة دوابشة في قرية دوما جنوب نابلس، وقتل ثلاثة من أفرادها، وإحراق كنيسة الخبز والسمك على ضفاف بحيرة طبرية، وإحراق

التلال».

ساهمت منظمة «نحالا» في إقامة أكثر من 60 مستوطنة وبؤرة استيطانية حتى الآن، وتنشط إعلامياً في الترويج للمشاريع الاستيطانية في الضفة الغربية، وتعمل على تعزيز علاقاتها مع القيادات السياسية في «إسرائيل» وفي الجاليات والمنظمات اليهودية عبر العالم. تتلقى الكثير من الدعم من اليهود في أوروبا وأميركا الشمالية.

وتحظى بدعم حزب «الصهيونية الدينية» وتأييده، وهو الذي يتزعّمه بتسلئيل سموتريتش، أحد أبرز السياسيين الإسرائيليين المتطرفين من ذوي الميول الفاشية وأخطرهم، وإذ دعا إلى حرق بلدة حوارة إلى الجنوب من مدينة نابلس، في موقف أثار غضب أوساط دولية واسعة، كما تهدف بأنشطتها الاستيطانية إلى الوصول إلى توطين مليوني مستوطن في الضفة الغربية.

تنظيم «تمرد»

أحد أكثر المنظمات الصهيونية إرهاباً وتطرفاً، وانبثق من منظمة «شبيبة التلال» الصهيونية المتطرفة، بصورة أكثر تنظيماً وتشدداً، يتزعّمه مئير إتينغر حفيد الحاخام المتطرف مئير كهانا، ويضم في صفوفه شباناً صغاراً في سن 16 إلى 25 عاماً، وتخترهم بعناية فائقة قيادة التنظيم، ويعقدون اجتماعاتهم بسرية تامة.

يعمل التنظيم في الضفة الغربية، ويتركز معظم أفراده في البؤر الاستيطانية العشوائية المنتشرة على التلال والجبال الفلسطينية، ومن أبرز جرائم هذا التنظيم: إحراق عائلة دوابشة في قرية دوما جنوب نابلس، وقتل ثلاثة من أفرادها، وإحراق كنيسة الخبز والسمك على ضفاف بحيرة طبرية، وإحراق

مركبات وممتلكات فلسطينية في بلدتي حوارة وبورين جنوب نابلس.

ميليشيا «نيتساح يهودا»

كتيبة عسكرية تتبع للواء كفير في جيش الاحتلال الإسرائيلي، ويخدم في هذه الكتيبة يهود متطرفون متعصّبون دينياً، وينتمي القسم الأكبر من جنودها إلى عائلات مستوطنين، يسكنون في البؤر الاستيطانية العشوائية في الضفة الغربية، ويُشرف عليها الحاخامات، تطورت بدعم من جيش الاحتلال، ويتلقّى أفرادها بشكل دوري محاضرات ودروساً ومواعظ دينية من الحاخامات، وقادة المستوطنين والجيش.

تنشط «نيتساح يهودا» في شمال الضفة الغربية، وتضم قرابة ألف مسلح وينفذ جنودها اعتداءات وحشية ضد الفلسطينيين، كان آخرها عملية الإعدام الميداني بحق الشهيد المسنّ عمر أسعد البالغ من العمر (80 عاماً) من قرية جلجليا قرب رام الله.

منظّمة «لافاميليا»

صهيونية يمينية عنصرية متطرفة، وتُعتبر واحدة من أنشط المنظمات اليهودية العنصرية وأخطرها، وتسعى إلى تأجيج الصراع مع الفلسطينيين على طرفي أراضي عام 1948، وفي مدينة القدس، وتُعتبر أرضية خصبة لخلق بيئة وحاضنة لممارسة الإرهاب والعنصرية ضد العرب.

تأسّست عام 2005، على أيدي نشطاء وأعضاء يهود كرابط مشجعي فريق «بيتار» القدس لكرة القدم، وعلى الرغم من ترويج المنظمة لنفسها على كونها رابطة مشجعين للفريق الإسرائيلي، إلّا أن عناصرها يُشتهرون بعنصريتهم الفجّة، ضد كل ما هو غير يهودي، ويتصدّر خطابهم العنصري وسلوكهم الهمجي العلني وعمليات الإرهاب والتخريب التي تطاول كل ما هو عربي فعالياتهم وأنشطتهم كافة داخل الملاعب وخارجها.

وأخيراً، تشكّل المستعمرات الصهيونية في الضفة المحتلة والقدس مشاريع اقتصادية ربحية، تدرّ مليارات الدولارات على الشركات الصهيونية الخاصة التي ترسو عليها كل عطاءات الحكومة، وهذا الواقع يشكّل مصلحة اقتصادية للكيان والشركات العاملة في مختلف المجالات المتعلقة بالإنشاءات والبناء والتكنولوجيا والطاقة وغيرها.

على الصعيد الفلسطيني

بعد إعادة هيكلة أجهزة السلطة الأمنية الفلسطينية عام 2005 - 2006 انتقلت هذه الأجهزة بالتدريج من مرحلة كانت تضع فيها قدماً في ساحة المقاومة والثانية في دوائر التنسيق الأمني، إلى مرحلة الشريك العلني التابع للكيان الصهيوني، وانتقلت من دور الوكيل الأمني المتعاقد من الباطن، إلى دور العميل والأداة المنفّذة لسياسات الاحتلال. واليوم يوجد 14 جهازاً أمنياً فلسطينياً تعمل في الضفة، تستهلك ثلث الميزانية الفلسطينية تقريباً، ويتوظّف بين 85 – 90 ألف شرطي ورجل أمن، ومموّلة بالكامل من الولايات المتحدة، وتقدّم تقاريرها إلى ضباط الاحتلال والمخابرات المركزية الأميركية (سي آي إيه).

وبعد انطفاء نار الانتفاضة الثانية، تصاعد العدوان أكثر، وأصبحت الأسئلة الشعبية الفلسطينية المُحرة التي توجهها الجماهير إلى السلطة تتلخص في الآتي:

إذا كنتم غير قادرين على حماية الأرض ولا الدفاع عن الناس وحمايتهم من اعتداءات الجيش والمستوطنين، إذاً لم كل هذا السلاح؟

وإذا كنتم غير قادرين على منع جرافة صهيونية من هدم بيت، ولا تحرير الأسرى، ولا وقف الاعتداءات على الأقصى والقدس، إذاً ما هي حاجتنا إلى السلطة؟

وإذ تستمرون في حالة استعداء غزّة وحصارها، ولا تريدون حتى انتخابات، تحت الاحتلال وعلى مقاسكم، وإذا كانت استراتيجيتكم كلها قائمة على أساس الشكوى والتذمّر للجامعة العربية والمجتمع الدولي، إذا كان هذا هو الواقع، وهو كذلك، فما حاجتنا إلى السلطة؟

والخلاصة التي تكرّست كقناعة شعبية، أن اتركوا هذه المسؤولية للشعب: المقاومة تستطيع.

وهنا تبرز الأسباب الكامنة وراء تجدد ظاهرة المقاومة في الضفة، فالمقاومة لا تولد من عدم، بل تُجدّد ذاتها باستمرار مع كل جيل جديد، إنها رد فعل على سياسات الكيان الصهيوني ورعاة مشروعه في فلسطين.

وليس سراً الجهد الذي تبذله قوى المقاومة بالتعاون مع «حزب الله» خلال السنوات الثلاث الأخيرة في الضفة، وخاصة جهود حركة «الجهاد الإسلامي» وحركة «حماس» وبعض قواعد حركة «فتح» والمجموعات الشبابية الجديدة التي نشأت في الضفة («عرين الأسود» وغيرها) ويجري العمل على دعم هذه المجموعات، وتوفير القدرات المادية والإعلامية والسياسية والعلمية لها.

ولاحظنا انخراط عشرات ومئات الشباب من العمّال والطلبة، من أبناء الطبقات المسحوقة الفقيرة في شمال الضفة والمناطق الأكثر تضرراً من الاستيطان، والأكثر تجربة وخبرة في مقارعة الاحتلال. فالأسرى الستة مثلاً (كتيبة جنين) الذين انتزعوا حريتهم من سجن جلبوع في عملية «نفق الحرية» أعطت زخماً كبيراً لتسريع تجدد المقاومة وكلهم من جنين.

الحاضنة الشعبية للمقاومة

الحاضنة الشعبية للمقاومة تعبّر عن نفسها اليوم في الضفة المحتلة من خلال مظاهر عدة، ومنها على سبيل المثال:

-الاستجابة الشعبية الواسعة للنداءات الصادرة عن المقاومة.

-نتائج انتخابات مجالس الطلبة في الجامعات الفلسطينية (حتى من خسر الانتخابات لم يرفع شعارات ضد المقاومة).

-انتخابات بعض النقابات المهنية.

-تزايد أعداد المشاركين في تشييع جنازات الشهداء، وفي المناسبات الوطنية.

-عقد مؤتمرات شعبية في عدد من المناطق والمدن وغيرها من مظاهر نضالية وجماهيرية.

-الحملة الشعبية المستمرة للدفاع عن القدس والمقدّسات الإسلامية والمسيحية، وخاصة المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

ومع انفجار انتفاضة «الوحدة» أو «سيف القدس» بدأنا نشهد انتقالاً تدريجياً من حالة رد الفعل إلى حيز المبادرة، ومن السلب والتذمر والغضب على مواقع التواصل الاجتماعي و«فايسبوك» إلى التواجد المادي في الميادين والشوارع. ولعبت الحركة الطالبية والشبابية دوراً أساسياً في تكريس المظاهر الشعبية، التي تؤكد حالة الالتفاف الشعبي الواسع حول خيار المقاومة المسلحة في شمال الضفة تحديداً.

وعلى الرغم من تحفّظنا على ما يسمّى «استطلاعات الرأي» إلا أننا سنأخذ هذا الاستطلاع الذي أجراه «المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية» وهو ليس صديقاً للمقاومة وتقديراته محافظة جداً. يقول في تقرير صدر في 15 حزيران 2023 إنّ معظم الفلسطينيين «يؤيدون الكفاح المسلح، ويرفضون مُلاحقة الأجهزة الأمنية الفلسطينية لكوادر المقاومة». وبحسب نتائج الاستطلاع، فإنّ 71% يؤيدون تشكيل مجموعات مسلحة مثل «عرين الأسود» و«كتيبة جنين». و86% يعتقدون أنه لا يحق للسلطة الفلسطينية ملاحقة أفراد هذه المجموعات. و80% يعارضون فكرة تسليم عناصر المجموعات أنفسهم أو سلاحهم للأجهزة الأمنية الفلسطينية بحجة حمايتهم من الاغتيالات.

لاحظوا أن هذه استطلاعات للرأي العام الفلسطيني في الضفة. يعني لو سحبناها على الشعب الفلسطيني كله، لوجدنا أن الأرقام أعلى بكثير لصالح المقاومة وضد ممارسات السلطة بل حتى ضد وجودها.

أزمة الرأسمالية الفلسطينية التابعة

مع تصاعد الاستيطان والعدوان الصهيوني من جهة، وتصاعد المقاومة وعملياتها (الفردية والخلايا المنظمة) بدأت تتكشّف أزمة طبقة الراسمالية الفلسطينية التابعة، وتبدو واضحة جداً أمام الجماهير. فهذه طبقة عميلة تتعاقد من الباطن مع الاحتلال، وتراكم مليارات الدولارات في حساباتها وبنوكها داخل وخارج فلسطين. وبدأت تجد نفسها بين مطرقة الضغط الشعبي الفلسطيني وسندان العدو وأميركا، ومن يطالبها بتقديم المزيد من التنازلات، وممارسة المزيد من القمع ضد الشعب الفلسطيني. إنّ حالها في ذلك حال كل الكيانات الوسيطة العميلة التي أنشأها المستعمر الأجنبي، حتى تكون واسطة وحزاماً بينه وبين السكان والشعوب المستعمَرة.

إنّ ما نشهده في الضفة، هو اكتمال لحلقات مشروع الاستعمار الصهيوني في كل فلسطين المحتلة من النهر إلى البحر. ومرحلة جديدة لتفريغ الأرض من السكان. وقد سمعنا عبارات كثيرة تعني «حسم الصراع» و«اقتراحات» من نوع «تأسيس الإمارات الفلسطينية المتحدة» القائمة على سلطة القبائل والعشائر. ومقولة «السلام الاقتصادي» وغيرها. وكلها تعني في المحصّلة الأخيرة تفكيك المجتمع الفلسطيني وتذويبه وصهره.

في المقابل، تشكّل المقاومة الشاملة، وفي القلب منها المقاومة المسلحة، المشروع الثوري الفلسطيني البديل، والصمغ السياسي الذي يجمع ويشد كل حواس الجسد الفلسطيني، ويوجّه تركيزه في بؤرة واحدة تحت شعار واحد وهدف واحد، يدفع هذا الخيار إلى تعزيز وحدة الشعب الفلسطيني في الوطن والشتات، والتسريع في ترجمة شعار وحدة الساحات ونقله إلى الميادين، مجسّداً في بناء جبهة وطنية عريضة للمقاومة والتحرير.

الغزّي إنسان!

بهاء شاهرة رؤوف

منذ فرض الحصار الصهيوني على قطاع غزّة، أصبح الإنسان الغزّي أحجية لمن لم يختلط به من قبل. يُسمع فقط عنه من التقارير الإخباريّة على التلفاز. وبعدما اشتهرت مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت هناك صورة عن هذا الإنسان يعكسها أصحاب هذه الصفحات ويصوّرونه بالشكل الذي يريدون. وهذا الأمر جعل الناس حول العالم ينقسمون حول ماهيّة شكل هذا الإنسان الذي يعيش هنا، في هذه البقعة، المسماة قطاع غزّة.

تارة تجد صورة البطل الذي لا يُقهر. وتارة تجد صورة هذا الشخص المظلوم الذي لا حول له ولا قوّة، وتارة أخرى تجده ذلك الشخص الذي يدافع عن حقه في الحياة، وتارة هو الإنسان المتشرّد... كثيرة هي الصور ولكنها في الحقيقة جميعها صور منقوصة، صور غير كاملة، تخدم فقط من يريد أن يصدّر الشكل الذي يريده ويخدم مصالحه، ويبقى الناس في قطاع غزّة أسرى هذه الصور.

عن إنسان غزّة بين الاسطورة والحقيقة

يُروى الكثير عن أسطورة الإنسان الغزّي. فهو جعل شمشون الجبار يدور كالثور بالرحى ليطحن القمح والحنطة، وهو الذي لم يستطع المغول هزيمته، مروراً بتمنيات إسحاق رابين بأن يبلع البحر غزّة حتّى برتاح منها، وليس انتهاءً بتحرير غزّة عام 2005. الكثير من الأساطير التي نُسجت عن غزّة وناسها، نُسجت بطريقة تجعل الغزّيين مثقلين بهَمّ صورتهم أمام العالم، الأمر الذي في حقيقته هو تقييد أكبر لهم ولمشاعرهم الإنسانيّة.

أصبح الناس في غزّة يقبلون بالكثير من المفاهيم والمدخلات الخاطئة عنهم وعن حياتهم حتّى لا تهتز صورة «الأسطورة» التي رُسمت عنهم في مخيّلة العالم. أصبح «الألم» الذي يتعرّض له الناس بشكل يومي هنا، يمزّج حياتهم بالمعاني والمفاهيم. أي يجسّد الدلالات ويعطيها شكلاً أمام الجميع، بالتالي المواجهات الجسديّة الواقعيّة وعالم المعنى والقيم المتشابكة. وبالتالي يصبح الإحساس تعبيراً عن مدى المعنى في هذا العالم الذي وجد نفسه فيه.

لكن في واقع الحال، الأمر يثقل كاهل الناس هنا. لا تساعد هذه الصورة على ممارسة الطبيعيّة الإنسانية التي يتمتّع بها أي إنسان في مكان آخر في هذا العالم. وبالتالي التصرفات العاديّة التي تصدر من الناس، تجعل الكثير يستهجن هذه التصرفات، مع أنّها عاديّة في عرفهم. وبالتالي يصبح هناك سوء فهم بين من ينتظرون الصورة التي رُسمت عن الغزّيين طيلة السنوات الماضية والتصرفات اليوميّة للغزّيين.

«المعاناة» كميزر بين السلطتين والغزّيين

تستخدم السلطة الحاكمة في قطاع غزّة معاناة الناس التي تُفرض عليهم من الاحتلال الصهيوني كمبرّر لفشلها في إدارة قطاع غزّة. وبالتالي تعطي صورة بأنّ هذا الفشل ما هو إلا انعكاس للسياسات الاحتلاليّة على القطاع. فيكون لديها مبرّر لقمع أي محاولة كانت لتحرّك الناس نحو همهم اليومي، الذي تتحمّل جزءاً من المسؤوليّة فيه.

أمّا سلطة رام الله، فتستخدم معاناة الناس كمبرر لمهاجمة أي مشروع كان ضد مشروعها «الأوسلوي» فتصدّر معاناة الغزّيين، كمثال حي على معارضتها التي تكون في نظرها بالضرورة معارضة فاشلة، ليس لها أي شرعيّة في نظر العالم. وبالتالي أي مشروع معارض مصيره الفشل.

أمّا أهل غزة، فيستخدمون المعاناة كمبرّر للوجود في هذا العالم ككل، فانفصل لديهم هَم الفلسطيني-الغزّي عن هم أي فلسطيني آخر، وبالتالي، أصبح الغزّي الذي يواجه الحصار بكل ثقله، من حرمانه من الحقوق وتحمّله ومواجهته للاعتداءات المتكررة بالقصف من الطيران الحربي ومن الاستهدافات المباشرة له، يشعر إلى حد ما بأنّه تميّز بمعاناته المفروضة عليه من الاحتلال نفسه الذي يفرض المعاناة على الكل الفلسطيني في أماكن وجوده كافة.

هل الغزّي «بطل مظلوم» حقاً؟

مصطلح «البطل المظلوم» في تعريفه الأبسط هو: الشخص الذي أخذ دور البطل من بين الجميع، ولم يحقّق له ما يكفي من القيمة الذاتيّة بين الناس لنفسه.

على الرغم من أنّ احتلال فلسطين واحد، إلا أنّه ظهرت هناك بعض المصطلحات الدخيلة علينا مثل «الخصوصيّة السياسية» للمكان الذي يوجد فيه الفلسطيني. هذه «الخصوصيّة» جعلت بعض الفلسطينيين يمارسون العنصريّة ضد بعضهم، بحجّة أنّ مكان وجودهم يحتّم عليهم أن «يصمدوا» أكثر، أو «يقاوموا» أكثر. أو أنّهم هم الحامون للوجود الفلسطيني...

كعادة استخدامات وألاعيب الاحتلال، فإنّ التفرقة مكسب له، فهو يلعب على هذا الوتر ليعزّز التفرقة بين الشعب الواحد. فلا نستطيع نكران أنّه نجح إلى حد ما في تثبيت هذا الأمر، وأنّه قد انطلى على بعض الفلسطينيين. وهذا ما يجعلنا نتساءل: هل الغزّي هو «بطل مظلوم» حقاً؟ في الحقيقة لا أرى ذلك، وإن كان هامش التناقضات الثانويّة يظهر بصورة أكبر عند الغزّيين بسبب أنّ الجميع يظن أنّه ليس هناك احتكاك مباشر بين الغزّيين والتناقض الرئيسي، ألا وهو الاحتلال الصهيوني.

في النهاية، وعودة على ذي بدء، إنّ الظروف التي يمر بها الإنسان الغزّي ما هي إلا انعكاس للاحتلال ذاته في فلسطين كلها، وعلى الفلسطينيين كلهم داخل الأرض وخارجها أي اللاجئين، فحتى وإن تغيّر شكلها في نظر الآخرين. الفلسطيني الغزّي مثله مثل أي فلسطيني آخر في أي مكان آخر، وبالتالي علينا أن لا نثقل الغزّي بصورة أكبر منه، لأنّه في النهاية... الغزّي إنسان.

البلاد

الإرهاب الصهيوني ضد يهود العراق: كنّا نعلم!

مصعب بشير

قبل شهر ونَيْف، وصلتني رسالة على هاتفي من صديقة يهودية معادية للصهيونية، ومعها رابطُ مقال. أتبعت الصديقة الرابط بتسجيل صوتي تدعوني فيه لقراءة المقال المهم الذي حسب قولها «ينطوي على معلومات لا يعرفها إلا قلةٌ قليلة من الناس». البارحة

نعلم جيداً أن أول ضحايا الإرهاب الصهيوني كانوا اليهود أنفسهم، وأنه قبل أن تدور الدائرة على يهود العراق، كان الصهاينة متورّطين في التآمر الإرهابي على يهود أوروبا ليُضطروا لترك أوطانهم، ولتحويلهم إلى أداة لاستعمار وطن غيرهم. ونعلم كيف تواصل تيودور هرتسل أبو المنظمة الصهيونية مع وزير داخلية روسيا القيصرية فياتشيسلاف فون بليهقه عارضاً خدماته بغرض الحؤول دون انخراط اليهود في النضال في صفوف النقابات والحركة الشيوعية، في الوقت نفسه الذي كان النظام القيصري يسوم اليهود سوء العذاب.

ونعلم أن الحركة الصهيونية مدّت يدها لعون النظام النازي اقتصادياً بشراء بضائع ألمانية بأموال اليهود الألمان من الطبقة الوسطى، على أن يترك النظام النازي هؤلاء يأتون إلى فلسطين. كما نعلم أن الحركة الصهيونية تركت فقراء اليهود يواجهون مصيرهم المحزن في المحتشدات النازية على أيدي الجلاوزة الهتلريين، في الوقت الذي كان فيه إمام مسجد باريس عبد القادر مسلي يعطي اليهود أوراقاً ثبوتية على أنهم مسلمون لحمايتهم من الجستابو، وإن كثيراً من مسلمي البلقان خبّأوا إخوتهم يهود البلقان وحموهم، وأن السفارة الإيرانية في برلين ساعدت الكثير من اليهود على الفرار من الملاحقة النازية.

ونعلم علم اليقين أن ما تعانيه بلاد اللسان العربي من جهل وجهالة وكراهية على أساس الفكر والطائفة أمرٌ غير حتمي الدوام، وأن «المسألة اليهودية» داءٌ أوروبي بعثته الإمبريالية الأوروبية إلى بلادنا على ظهر الصهيونية. وندرك تماماً أن اليهود في بلادنا، رغم كل ما شهده تاريخها من أحداث عنيفة واليمة، عاشوا مثل إخوتهم من المعتقدات الأخرى في سلام وأمان لم يعرفهما يهود أوروبا، وأن ما هَرَف به نتنياهو بأن أمين الحسيني أوحى لهتلر بالمحرقة هراءٌ لا يرتقي إلى مستوى الخطأ.

ونعلم أن العيَّ الصهيوني الذي يذهب إلى إبراز أمين الحسيني على أنه كان زعيم الشعب الفلسطيني هسهسةٌ لا ترتقي إلى مستوى الهلاوس، وأن ما قام به أمين الحسيني من تحريض على يهود العراق كان متماشياً مع سياسة النظام المهترئ في العراق آنذاك، التي كانت ترمي إلى خلق معارك هامشية تشغل جماهير البلاد عن معركتها الحقيقية ضد حكامها اللصوص، وأن ذاك استمرارٌ لنهجه الذي يمثّله هو وحده، والذي ضيَّق به على الأحياء في فلسطين بأن صفّى قادة الحركة النقابية الناشئة، ميشيل متري وسامي طه، قبل أن يجعله ياسر عرفات يضيّق على الأموات بأن بنى له ضريحاً يحتل نصف مساحة مثوى شهداء شاتيلا.

ونعلم أيضاً أن دافيد بن غوريون، الزعيم الصهيوني الأيقوني، قال بكل ما في المستعمِر من صفاقة وإجرام بارد يوم الأربعاء الموافق لـ 1938/12/07 أمام مؤتمر لحزب «ماباي» الصهيوني، بعد مرور شهر على «ليلة تكسير الزجاج» ما يلي: «لو علمت أنه من الممكن إنقاذ كل الأطفال اليهود في ألمانيا من خلال نقلهم إلى إنكلترا، وأنه يمكن إنقاذ نصفهم فقط من خلال نقلهم إلى أرض إسرائيل، لكنت اخترت الأمر الثاني، إذ إنه لا تمثل أمامنا فقط مسألة عدد أولئك الأطفال، بل مسألة الاعتراف التاريخي بشعب إسرائيل».

وقبل ذلك كله

نحن أول من عرف أن الصهيونية شيءٌ وأن اليهودية شيءٌ آخر، وذلك منذ مطلع القرن العشرين. ونحن أيضاً أول من عرف أن إسرائيل نظام أبارتهايد استعماري. لم يُصنع لنا لمّا نطقنا بعد أن علمنا، ومن الأسباب الأساسية لذلك عدم اتخاذنا ما ينفع من أدوات كي يُصغى لنا كما ينبغي. من الجيد أن أصوات المؤرخين الجدد تتعالى في إسرائيل رغم محدودية أثرها حالياً، فهي تراكم الأساس المعرفي للخطاب اللازم تعميمه على اليهود أنفسهم. فأي عملية نضالية تتطلب تعميم خطاب يزيل الهالات الخرافية عن الواقع وعن التاريخ، وتلك مهمتنا نحن، فمن حرفوا المسار بالمفاوضات، ومن يؤيّدون القمع والتخلف باسم المقاومة، هم من يتبنون الخطاب الخرافي في فلسطين. لسنا بذلك نستجدي عطفاً من أحد، بل نتوخّى إضاءة قبس يدلنا على الطريق نحو الغاية المنشودة، فلطالما كانت الومضات التقدمية في تاريخنا المعاصر تتناسب عكسياً مع منسوب الطائفية ككل وكراهية اليهود بالأخص.

أفي شلايم

مروان البرغوثي
من الأسر إلى الحرية

موسى جرادات

في كل مرة تحضر سيرة الأسير مروان البرغوثي، تحضر معه سيرة حضوره الفعلي في أجندة العمل السياسي الفلسطيني، وعلى الرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً على أسر البرغوثي، إلا أن حضوره الفعلي يطغى على الحراك السياسي الفلسطيني برمّته. والذي يجعل من هذا الحضور المتجدد دوماً، على الرغم من العزل داخل زنازين الاحتلال؛ مسيرته النضالية المتواصلة.

من دون شك فإن اسم مروان البرغوثي وسيرته الذاتية النضالية، شكّلا حالة رمزية في النضال الفلسطيني، فالرجل المولود في عام 1958 تعرّض للاعتقال عدة مرات منذ بداية شبابه الأولى، ومع مطلع الانتفاضة الأولى طورد واعتُقل وتعرّض للإبعاد خارج حدود الوطن، ليعود بعدها مطلع عام 1994، ويواصل مسيرته النضالية ويتولى أمانة سر حركة «فتح» في الضفة الغربية.

ومع اندلاع انتفاضة الأقصى في عام 2000، كان للبرغوثي الدور المركزي فيها، فأسهمت مكانته التنظيمية في صفوف حركة فتح للعب هذا الدور، وطوال السنوات التي سبقت الانتفاضة الثانية، لم يشارك البرغوثي في تولّي أي مسؤولية في صفوف السلطة، وبالتالي استطاع الحفاظ على مسافة معها، بعد أن أبقى حركته تنظيماً شعبياً، له حيثياته غير المقيّدة بشروط «أوسلو» وتوابعها، وتُعد هذه الخطوة مكسباً مهماً لـ«فتح»، فقد مكّنها من لعب أدوار كبرى في إدارة المعركة مع الاحتلال.

هذا لا يعني أن البرغوثي لم يكن على إيمان بالحل السياسي أو على بعد عن رؤية السلطة لهذا الحل، لكن بعد الانخراط الشخصي وبحكم المسؤولية التنظيمية التي تولاها، جعله، وعبر ممارساته السياسية، بعيداً عن كل الصراعات السياسية التي أفرزتها «أوسلو» وما تلاه، فلعب الرجل أدواراً وحدوية بين مختلف الفصائل الفلسطينية، سواء الرافضة لأوسلو أو المساندة له. لقد حافظ على خط الرجعة، وحافظ لحركته «فتح» خطها المقاوم، خاصة بعد تشكيل «كتائب شهداء الأقصى» في فلسطين، والتي بدورها أعادت للكفاح المسلح دوره في الصراع مع الاحتلال.

الرمزية النضالية والأسر

أكثر من عقدين على الأسر واسم مروان يحضر في كل محطة نضالية، لا سيما ما يتعلق ببناء الوحدة الوطنية وإنهاء الانقسام المتواصل منذ نحو 17 عاماً، فالرجل كانت له إسهامات مهمة على هذا الصعيد، فمن داخل المعتقل تمكّن مع ثلة من قادة الفصائل الأخرى الأسرى من صياغة وثيقة سياسية، عُرفت بوثيقة الأسرى، وقد حملت رؤية سياسية ونضالية متكاملة، تكمن أهميتها في أنها حظيت بإجماع مختلف القوى الفلسطينية. وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة لم تزَ الفاعلية حتى هذا الوقت، لكنها لا تزال تُعدّ مرجعية أساسية في كل جولات الحوار الداخلي الفلسطيني، صحيح أن تلك الحوارات اللاحقة للوثيقة لم تسفر حتى هذا الوقت عن نتيجة إيجابية، إلا أن جولات الحوار تعتمد على ما صاغه الأسرى في زنازينهم من توافقات، وربما هم وحدهم الذين لديهم القدرة على تلمس ضرورات الوحدة في مواجهة الاحتلال والسجّان.

مستقبله البرغوثي السياسي

أيضاً لم يغب اسم البرغوثي عن المسرح السياسي الفلسطيني والعربي والدولي، على الرغم من مرور كل هذا الوقت من الاعتقال والعزل، وظل على الدوام حاضراً في أروقة صناعة القرار الفلسطيني، فتم انتخابه في عضوية اللجنة المركزية لـ«فتح» في عام 2009، في المؤتمر السادس الذي عُقد في مدينة بيت لحم، وكذلك أعيد انتخابه في عام 2016 في المؤتمر السابع لـ«فتح» الذي عُقد في مدينة رام الله.

لكن أهم المحطات السياسية المصيرية في حياة البرغوثي حين أعلن عن الترشح لرئاسة السلطة الفلسطينية، بعد إصدار الرئيس الفلسطيني محمود عباس منتصف كانون الثاني 2021 مرسوماً رئاسياً يحدد مواعيد الانتخابات، ووفق المرسوم الذي أصدره عباس كانت ستجري الانتخابات الرئاسية والتشريعية وانتخابات المجلس الوطني في أيار وتموز وآب من العام ذاته.

أكثر من عقدين على الأسر واسم مروان يحضر في كل محطة نضالية، ولا سيما ما يتعلق ببناء الوحدة الوطنية وإنهاء الانقسام المتواصل

كان إعلان البرغوثي علامة فارقة في تاريخه النضالي خاصة أن هذا الإعلان يخالف القرارات الصادرة عن «فتح» التي توصي بأن يكون لديها مرشح واحد في هذه الانتخابات، وبالتأكيد تقصّدَ بهذا المرشح الرئيس محمود عباس. لكن ما دفع البرغوثي لهذا الفعل هو جملة من العوامل الداخلية، أولها يتعلق بشق مسار لحريته من المعتقل، وثانيها يتعلق بحظوظه الكبيرة في الفوز بتلك الانتخابات. وهناك استطلاعات رأي تؤكد ميل الشارع الفلسطيني إلى مروان البرغوثي تأييداً. أظهر آخر استطلاع للرأي أجراه «المركز الفلسطيني للبحوث المسحية»، منتصف كانون الأول الماضي من عام 2021 أن 69% من الفلسطينيين سيشاركون في الانتخابات التشريعية القادمة، وستحصل قائمة «فتح» المؤحَدة على 38% من الأصوات مقابل 34% لقائمة «حماس».

وجاء في الاستطلاع أنه لو شكّل البرغوثي قائمة مستقلة عن قائمة «فتح» الرسمية فإن 25% من الجمهور سيصوتون لها، و19% لقائمة «فتح» الرسمية. وللدلالة على أهمية هذا الترشح فقد أشار الاستطلاع إلى أنه لو جرت انتخابات رئاسية وترشح فيها اثنان فقط هما عباس وإسماعيل هنية (رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية «حماس») لحصل الأول على 43% من الأصوات والثاني على 50%، أمّا لو كانت المنافسة بين البرغوثي وهنية فإن البرغوثي يحصل على 61% وهنية على 37%.

من هنا فإن دعوة البرغوثي لخوض هذه الانتخابات لها ما يبرّرها، على الصعيد الشخصي وكذلك على صعيد الحركة الوطنية الفلسطينية، مع الملاحظة أن تلك الدعوة للانتخابات، قد تم التنصّل منها من قبل قيادة السلطة، بعد أن تبيّن لها أن حظوظها في الفوز معدومة، بعيداً عن طرح البرغوثي.

الحراك السياسي للإفراج عن البرغوثي

عاد الحديث مرة أخرى عن إمكانية الإفراج عن مروان البرغوثي، فقد أعلنت زوجته فدوى البرغوثي، في لقاء مع وزير الخارجية الأردني في عمّان نهاية شهر تموز الماضي، إطلاق حملة دولية للإفراج عن زوجها.

ومن المقرّر أن يتم إطلاق الحملة في الأشهر القليلة المقبلة، والتي تحمل اسم «الحرية لمروان البرغوثي، مانديلا فلسطين» في أوروبا وأميركا اللاتينية وجنوب أفريقيا من قبل «مجموعات تضامن»، وستعمل على الضغط على المجتمع الدولي من أجل إطلاق سراحه. وكانت رحلة فدوى البرغوثي إلى عمّان هي المحطة الأخيرة في جولة وصلت خلالها إلى القاهرة للقاء الأمين العام لجامعة الدول العربية، أحمد أبو الغيط، وسبق أن جرت لقاءات مع وزير الخارجية المصري سامح شكري، ومع نائب وزير الخارجية الروسي ميخائيل بوغدانوف.

من السجن إلى الحرية

من خلال الحضور الفعلي للسيرة النضالية للبرغوثي، سواء داخل الوطن أو الإبعاد والعودة، في المعتقل أو خارجه، بقي طوال تلك السنوات محافظاً على مسيرته النضالية، وهي مسيرة حركته ومسيرة شعبه، وربما يكون الوريث الفعلي والحقيقي لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية مستقبلاً، خاصة أن حالة الإجماع الوطني عليه تتخطى حدود حركته الأم، وطالما حظي بتقدير كل القوى الفلسطينية الأخرى، إضافة إلى الالتفاف الشعبي حوله، في صورة قلّ نظيرها، فهل يخرج من معتقله، ليجدّد وتتجدّد معه تلك الوحدة؟

قفزة نوعية لمؤتمر الكتّاب الفلسطينيين

وليد عبد الرحيم

لم تكتف الجهود الصهيونية الاجتياحية والسرية بهزيمة الفدائيين والمقاومة عسكرياً وإخراجهم من بيروت عقب حصار عام 1982، فكان لا بد من ترسيخ تعميم الخلافات والانشقاق الداخلي والتشتيت وسحق الهوية الثقافية لترسيخ الهزيمة.

أحد معاول تحطيم معنى وشكل الهوية الفلسطينية، وقيم ثورة التحرر هو تقزيم الرموز والهيكلية، وتزييف فحوى وعمق الثقافة والأدب والفن وشتى جوانب الإبداع وسطوعها. باعتبار أن ذلك هو المُعبّر الإيجابي عن عمق وأصالة الرسوخ الوطني. فأول ذلك اجتهد منشقّو الثمانينيات المستكملون لتفكيك البنية الفلسطينية الوحدوية والثقافية لتفتيت وتسخيف معنى الهوية الثقافية، ذلك استكمال لإضعاف سمات بؤرة مقولة الشعب الراقية، وتفتيت منظمة التحرير وجواهر المقاومة واستبعاد قيم الثقافة ومبدعيها لإتمام نواحي قواعدية رُسوخ الهزيمة والتفتيت.

منذ لحظة بدايات الوعي الهُوِيَّاتي تأسّس اتحاد الكتاب والصحافيين، متزامناً مع اللحظات الأولى لابتكار شكل نخبة استثنائية يتقلدها ويرعاها أحمد الشقيري والمنظمة، التي أنجبت أطر النخبة وحقيقتها التي منعت سقوط أو تلاشي الملمح التاريخي والهوية. ولهذا انتبهت النخب إلى ضرورة تشكيل كتل نقابية عدة، مثل تجمع المرأة والطلبة والأطباء والكتاب والصحافيين...

تجلّى ذلك إعلانياً في عام 1966 داخل فلسطين، تزامناً مع صعود صوت الثورة والبندقية، وتمركز الاتحاد في قلب فلسطين، لكنه تم احتلالها عام 1967 وتدمير مراكز البنى النقابية في القدس العاصمة.

انعقد، بعد تخبط متتالٍ لسنوات، المؤتمر الفعلي الأول 1972 الذي حمل في تركيبته ترسيخ خطيئة مزج الكتاب والصحافيين في إطار واحد، على الرغم من القيمة الأدبية والفكرية والوطنية العالية للقائمين على ذلك. إلا أن حشر الاختراق النفعي لفصائل المقاومة حيّد ماكينة دعم رموز وحرية الإبداع الثقافي والأدبي، فتم ذلك عبر خلق هيمنة الفصائل وحشر من لا علاقة لهم بالأدب والصحافة بين كبار المبدعين، ما أفسد تركيبة الاتحاد البنيوية بسبب التلقائية الفردية لارتقاء أعضائه الأساسيين عامة. وحُشر في جنباته بعضٌ ممن لا يمتّون للكتابة والصحافة بصلة وذلك بسبب هيمنة العضوية الفصائلية، على الرغم من أن الجسم الأساسي البارز يكتنز شخصيات أدبية وإعلامية ذات إمكانات وسمات مبدعة وثورية.

على الرغم من ذلك، فإنّ منظمة التحرير منحت للنقابات دعماً مهماً إطارياً وحدوياً ودعماً مالياً حتى انخرطت كبرى الشخصيات في اتحاد الكتاب والصحافيين، وأسّس ذلك عميقاً لرغبة الارتقاء الشهير. فالعامل الأول حشد الشعر والأدب في التشكيلة، والثاني أصرّ على التفتيش والبحث في المناطق المحتلة عامي 1948 و1967 وبلدان اللجوء، فأنجز البذرة التواصلية التي تحجبها بعض الأنظمة تنفيذاً للرغبة الصهيونية بفصل الداخل عن الخارج. إلا أن غسان كنفاني أصدر تعريفه الشهير بأدباء الداخل، فأفشل تلقائياً الخطة الصهيونية للفصل بين جغرافيات تواجد الفلسطينيين!

مرّت سنوات السبعينيات بفرادة قيمية وصورة فكرية وأدبية راقية، حيث صار الاتحاد واحداً من أهم النقابات الفكرية والثقافية الإبداعية عربياً وعالمياً، وحظي باحترام استثنائي نظراً إلى استقرار العالم لفخامة وارتقاء شخصياته الأدبية المبدعة ونتاجاتها، وهو ما أربك الدوائر الصهيونية التي فشلت وما زالت في منافسة الأدب الفلسطيني ورموزه، حتى إنها فشلت في التضييق على مبدعي الثورة والقضية، فاغتالت البعض وضيّقت على الآخرين، فلا الموت أنهى حضور المبدعين ولا الملاحقة والاعتقال داخل فلسطين وخارجها أديا إلى التقهقر المطلوب!

عقب اجتياح لبنان وترحيل النخب من بيروت تم استكمال المحاولة، فشُقت منظمة التحرير، وهوجمت الثقافة الشعبية والنخبوية وتركيبتها واستُهدفت وجرت محاولات تهجير المبدعين وإبعادهم جغرافياً وإعلامياً، فكان لا بد من تحقيق شق الاتحاد وهيمنة المنشقين فصائلياً على بعض التجمعات الأدبية والنقابية بحسب الجغرافيا كرد أساسي على القلق من صيغة وحدة الكتاب والإعلاميين.

العديد من الشخصيات النقية انجرَّت للشق ببراءة، ومن خلال تمسكها بالقيم الثورية، ولم تدرك بأن هذا الأمر يسعى لتدمير البنية الإبداعية والثقافية والهوياتية، وتشتيت تماسك أهم وأخطر نقابة ترأّستها نخبة من المبدعين، وهو ما يُستخلص ببساطة من خلال مراجعة أسمائهم كرؤوس للاتحاد...

كان استهداف بنية وشخصيات الاتحاد مترافقاً مع شق البنية الوطنية عقب هزيمة الثورة في لبنان، ومحاولات استكمال وأدها عبر التفكيك الذي يحتمي بشعارات خطابية، حتى ترهُلت مع الزمن فصار واضحاً أن الشخصيات الدخيلة بلا مؤهلات تهيمن وتخرب في التركيبة الداخلية وتعمل على منع أيّ محاولة للوحدة أو التطور ولا تزال متكدّسة للحفاظ على وجود من هم لا يمتون للإبداع بصلة ويستلون خطابات وشعارات سطحية للاستمرار في وأد البنية المنافسة الراقية. فانكشف الأمر منذ وفاة بعض رموز النخبة بدءاً بحشد وتنسيب أعضاء لا علاقة لهم بالكتابة والإعلام مطلقاً وهو ما دمّر صورة وسويّة الاتحاد.

عقب الإدراك، جرت لقاءات وترتيبات مهمة بين الداخل والخارج، وتم تعطيلها من قبل الدخلاء والمترهلين والقفز فوق معاني الوحدة الوطنية والنقابية، حتى إن المواثيق الوطنية والاتحادية التي وقّعتها شخصيات مهمة بين الداخل والخارج كانت قوى التفتيت الفصائلية والسياسية تخرب خيوط التكامل للاستمرار في إضعاف وتسخيف بنية ومستوى الاتحاد، حتى إن من هم غير أدباء أو إعلاميين ما زالوا يحاولون الحفاظ على الانقسام وتقزيم الاتحاد حتى اللحظة، وثمة قوى خفية تموّل هؤلاء المخربين.

يحاول اليوم الكُتاب الحقيقيون والشخصيات الوطنية والمبدعة ومنجزو القيم الجمالية والإبداعية إعادة ترتيب العضوية واستعادة صورة احترام الاتحاد وفصل الكُتاب عن الصحافيين مهنياً، وتوحيد كتلة جغرافية الوطن مع الشتات، في حين يشعر من هم غير جديرين بالعضوية بتراجع وجودهم لهذا يستلّون بعض الخطابات المزيفة ومهاجمة كل من هو داخل جغرافيا فلسطين التاريخية. كما أن هناك في الداخل من يحاول حشد ذات الجهد للإبقاء على التشرذم للسبب ذاته، وهو إبقاء من لا ينتمون إلى الاختصاص والإنجاز الأدبي والإعلامي مهيمنين. وعلى الرغم من ذلك، فإن المبدعين والكُتاب الحقيقيين على اختلافات توجهاتهم النظرية والفكرية والوطنية والإسلامية، واتفاقهم على الهاجس الوطني ومواثيق الشرف، واستيعابهم لما هو خلف سطر التعبير المختلف، هم متفقون. الأمر الذي توصّل أخيراً إلى تحديد موعد لعقد المؤتمرات الفرعية بدءاً من فرع سوريا في دمشق يوم 2023/9/10 لفصل الكُتاب عن الصحافيين في اتحادين، وعقد الانتخابات الديموقراطية، ثم عقد مؤتمر الصحافيين، وبعدها تصحيح فرع لبنان ثم في مواقع جغرافية أخرى حتى الوصول إلى صورة الاتحاد الحقيقية مهنياً والمحترمة عالمياً. وهناك بعض الشخصيات الركيكة الدخيلة الانشقاقية التي تستفيد من نقود سرية ورشاوى بعض القوى المتخفّية المعطّلة للوحدة، والتي تسعى للتخريب عبر شعارات سطحية ركيكة وبهاتة.

الأخبار al-akhbar
السبت 2 أيلول 2023 العدد 5000

رسالة البندقية

«فيراري» مايكل مان: مدهش بنهايته المرعبة!

شفيق طبارة

ثماني سنوات، هي المدّة الزمنية التي استغرقتها مرحلة ما قبل الإنتاج لصنع فيلم «فيراري» (2023 ـ 130 د) للمخرج مايكل مان الذي يشارك في المسابقة الرسمية للدورة الثمانين من «مهرجان البندقية السينمائي الدولي». منذ عام 2015، بدأ مان ببناء الفيلم وكان من بطولة كريستيان بيل في الأصل، ولكن الأخير ترك المشروع لأنّه كان قلقاً بشأن عدم قدرته على الوصول إلى الوزن المناسب للشخصية. هيو جاكمان كان الخيار التالي، ولكنّه وقتها كان يصوّر أفلاماً أخرى، إلى أن وقع الاختيار على آدم درايفر الذي وصل في ليلة الافتتاح إلى جزيرة الليدو في البندقية. وذلك على الرغم من إضراب الممثلين والكتّاب الهوليووديين، وهو واحد من قلّة من المشاهير الذين ظهروا في هذا الحدث، لأنّ «نقابة ممثلي الشاشة ـ الاتحاد الأميركي لفناني الراديو والتلفزيون» (ساغ ـ أفترا) أعفت الممثل والمخرج الأميركي وسمحت له بترويج الشريط كونه أُنتج خارج نظام الاستديوات الرئيسية الكبيرة. خلال المؤتمر الصحافي للفيلم، انتقد آدم درايفر استديوات هوليوود الكبيرة، بما في ذلك نتفليكس وأمازون، لرفضها تلبية مطالب الكتّاب والممثلين. وقال: «أنا سعيد للغاية لوجودي هنا لدعم هذا الشريط، وفخور أيضاً لأكون ممثلاً في فيلم ليس جزءاً من AMPTP (تحالف منتجي الصور المتحركة والتلفزيون)».

آدم درايفر يلتقط صورا مع المعجبين في ليلة افتتاح الحدث الإيطالي (تيزيانا فابي ـ أف ب)

وتساءل درايفر: «لماذا يمكن لشركة توزيع صغيرة (مثل «نيون» التي توزّع «فيراري» في الولايات المتحدة) أن تمتثل لمطالب (النقابة) في حين لا تستطيع شركة كبيرة مثل نتفليكس أو أمازون ذلك؟».

وأشار إلى أن الإعفاء الذي استفاد منه الفيلم «يوضح بشكل أكبر حقيقة أن البعض مستعدون لدعم الأشخاص الذين يتعاونون معهم، والبعض الآخر لا»، مضيفاً: «لكل هذه الأسباب، لا داعي للقلق بشأن اتخاذ قرار بدعم نقابتكم، وأنا هنا من أجل ذلك، لإظهار تضامني والتأكيد أن ما يهم حقاً هم الأشخاص الذين تعملون معهم».

من ناحيته، أوضح مان أنّه تم تصوير الفيلم بسبب تنازل الأشخاص الذين عملوا عليه عن نسب كبيرة من رواتبهم، فيما عمل منتجون بشكل أساسي من دون بدل مالي: «لم يتم إنتاجه بواسطة استديو كبير، ولم يصرف لنا أي أستديو كبير شيكاً».

مودينا عام 1957، حيث يعيش «إنزو فيراري» (آدم درايفر)، السائق السابق وصانع أشهر السيارات في العالم، أزمة شخصية ومهنية وهو على مشارف سن الستين. الشركة التي أنشأها من الصفر قبل عشر سنوات مع زوجته «لورا» (بينيلوبي كروز)، تواجه أزمة مالية كبيرة. كما أنّ زواجهما يواجه أزمة بعد وفاة ابنهما الوحيد «دينو» قبل عام، وعندما اكتشفت «لورا» أنّ «إنزو» لديه ابن ثانٍ من علاقة خارج نطاق الزواج مع «لينا لاردي» (شايلين وودلي). بحثاً عن مخرج، يقرّر «إنزو» أن يراهن بكل شيء في سباق السرعة، سباق الألف ميل الأسطوري.

«فيراري» لمايكل مان ليس فيلم سيرة ذاتية تقليدي عن «إنزو فيراري»، ولكنّه قصة محدّدة عن فترة في حياته، قرر المخرج إطلاعنا بصرامة سينمائية على الصورة العامة والخاصة لرجل معقّد بشكل كبير. فخرج بفيلم يبدو في الظاهر أنّه دراما كلاسيكي، ولكن بعد توالي الأحداث والتعمّق أكثر، يستحيل شريطاً نفسياً مرعباً، يتشرّب من أفلام المافيا ليقدم لنا صورة الرجل والمرأة المضطربَيْن في خضم مشكلات نفسية ومالية لا مجال للخروج منها.

يلعب الموت دوراً كبيراً، من البداية حتى مشهد الحادث الكبير في النهاية. وكأنّ العمل بأكمله يأخذنا إلى هذه اللحظة المؤلمة ليتحطّم في وجهنا، كما تحطمت سيارة الفيراري خلال السباق. قدّم مان فيلمه بصرامة شكلية وحوارات دقيقة جداً وسريعة. كل شيء في الفيلم يجري بسرعة ولكن كل مشهد وحوار يظهر في وقته المناسب. هناك الكثير من الألم. ألم الحب والفقد، وحتى ألم الربح الذي تتخلّله خسارة الأصحاب. «فيراري» لمايكل مان، عمل مدهش وغامض. يعرف مان كيف يكتب قصة ويسرد حبكة ويقدّم مشاهد سباق بأسلوب مرعب يحمل الكثير من الخطورة للفيلم.

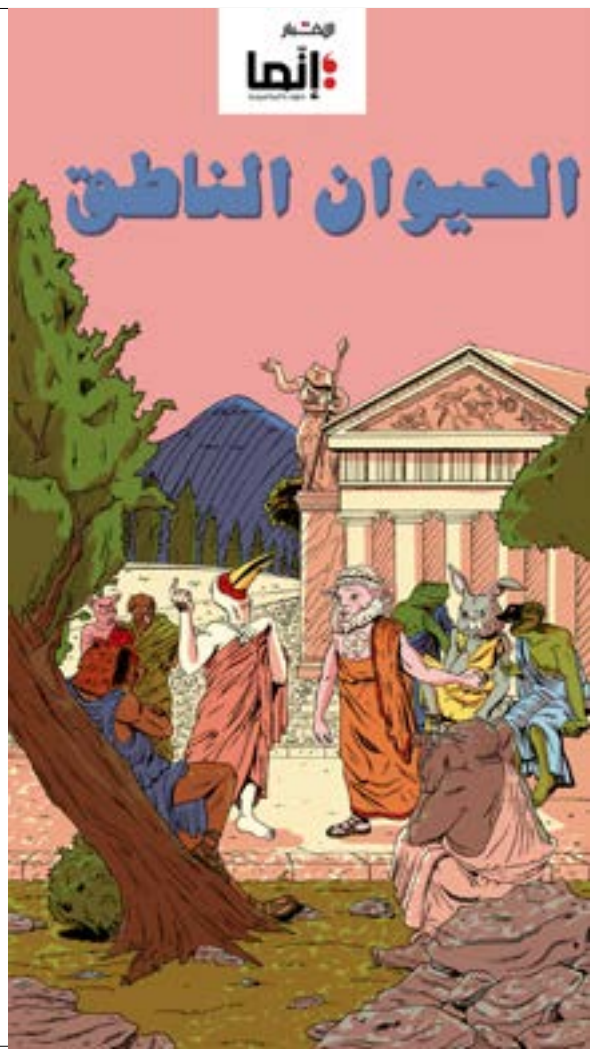

الحيوان الناطق

يخبرنا تاريخ البشرية أن أول وصف اتّسم به الإنسان جاء قديماً مع أرسطو حينما نعته بالـ«حيوان العاقل»، ذلك أن ملكة العقل، والتي تعني النطق أيضاً، هي ما يميز العاقل عن غير العاقل. في الفترة «القديمة» نفسها، نرى أن ما نطق به هذا «الحيوان العاقل»، إن على الصعيد الشفهي كما جاء في الأساطير حيث تمظهرت الآلهة على شكل كائنات يمتزج بها البشري مع الحيواني في الهيئة والملمح، أو على الصعيد الحِرَفي كما عكسته النقوش في الكهوف حيث القصص والشخصيات تغوص في مناخ حيواني مفرط (بعض النقوش أشبه بكوميك وهي سبّاقة آلاف السنين على أعمال هاشم رسلان). يمدّنا هذا التاريخ إذاً، بخيوطٍ تكشف لنا عن علاقةٍ وطيدة ربطت الإنسان، «الحيوان العاقل»، بغريمه، ذلك «غير العاقل». لكن إذا كان الحيوان قديماً يعني جسداً كبيراً، له أنياب حادة، ومستعدّ في أيّ لحظة على الانقضاض والقتل، ولا يترك وراءه سوى ظلال الخوف، والتهديد، والارتعاد، فقد انتصرت مخيلة الإنسان في التاريخ المعاصر على ذلك الوحش «غير العاقل» حتى باتت هذه اللاعقلانية، المتمثّلة بالحيوان، مقبوضاً عليها، وبالتالي على من يمثّلها: الحيوان. هكذا اقتصر وجود الحيوان على امتلاكه، وتدجينه، وعلى توظيف دلالاته -المُعاصرة- باعتباره رمزاً بدائياً همجياً. اليوم، فعدا استحضار الحيوان كشتيمة بغية الذمّ والهجاء، أو التمثّل به في صيحات أو ميول جذرية مليئة بالغرابة ومتطرفة كما فعل رجل من اليابان في الآونة الأخيرة حيث أجرى عملية تجميل لوجهه ليبدو كلباً، نادراً ما نعير اهتماماً لأوجه الشبه التي تجمع الكائن «العاقل» مع الحيوان، حتى ولو استعنّا بالمجاز فإننا ننحو إلى أنسنة الحيوان، وننسى الوجهة الأخرى، والتي أكثر دقّة، أي حيونة الإنسان.

لقد جاء القرن التاسع عشر محمّلاً بالنهضة وبالكثير من الأقفاص التي أسرت في داخلها حيواناتٍ كانت نتيجة «محصول» استعماري، وزجّ في داخلها أبناء «العالم غير المتحضّر»، أصحاب البشرة السوداء على وجه التحديد، حتى تحوّلت المدينة التي عُرضت هذه الأقفاص فيها إلى ما يشبه الغابة الكبيرة، مهما نمّقوا العبارة وقالوا إنها سيرك. من هذا القفص تحديداً، استمدّت الأنظمة طباعها، فحوّلت المجتمع إلى سجنٍ كبير. وللحفاظ على المسجون فعليكَ ضرب العقلنة، وإزاحة الكلام\ النطق جانباً، وتكريس التأتأة، والمأمأة، والقلقلة. بيد أن اللغة بأقصى تجريدها تبقى إشارة صوتية، والصوت مهما كان خافتاً يبقى أثراً إنسانياً له صداه. لذلك، ولأن النطق في النهاية يبقى تعبيراً من الصعب محوه (إن أكثر الأشياء التي تتذكّرها هي أكثر الأشياء تفاهةً)، ولأن المنطوق غالباً ما يكون غير عقلانيّ، خصوصاً أن المؤسسات والأنظمة تعمد إلى ضرب العقلنة وتعويم نقيضها، فها هو الإنسان باعتباره، على الأقل كائناً ناطقاً، يعيش على تقليد الحيوان طوعياً أحياناً ونتيجة أمرٍ أحياناً أخرى، أو في «تغريبه» عبر إعطائه اسم علم مثلاً، وأحياناً يعمدُ إلى استنساخه، وكل هذا يحيلنا إلى أن هذا «الكائن» (الناطق) ما هو سوى حيوان ناطق.

في هذا العدد ستعرّفنا غنى حنفاوي بالحيوان، ككائن مستقل، وستخبرنا عن «أهميته». سيحضر معنا أيضاً «صرصار» كافكا، و«خنازير» بينك فلويد، والحيوانات الأليفة أي المشاهير الجدد الذين يحتلون فضاء السوشل ميديا، و«موكلي» أو الإنسان الرازح تحت الرأسمالية، وبالفعل، يبدو أننا هذه المرة، أمام أسطورة جديدة قوامها الحيوانات، لكن هذه المرة نحياها، لم يحن وقت تناقلِها بعد، على أمل أن يكون هذا العدد تدويناً بسيطاً لها.

لقراءة ملحق «إنما»

بول مخلوف

الأخبار al-akhbar
صادرة عن شركة أخبار بيروت

رئيس التحرير
ابراهيم الأمين

مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

المدير الفني
صلاح الموسى

المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد الطابق الثامن
تلفاكس: 01759500 01759597
ص.ب 113/5963

/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/AlakhbarNews

الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
التوزيع
شركة الأوائل
15ـ 666314/ 01 ـ 828381 / 03
الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

الأخبار
al-akhbar

السبت 2 أيلول 2023
العدد 5000 السنة الثامنة عشرة
Samedi 2 Septembre 2023 nº 5000 18ème année

كلمات
ملحق أسبوعي
www.al-akhbar.com

ميشال فوكو

الفلسفة نبيّة اللحظة

محمد ناصر الدين

في مفاجأة سارّة غير متوقّعة، نشرت «دار سوي» الفرنسية أخيراً إصداراً جديداً بعنوان «الخطاب الفلسفي» للفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (1926-1984)، وهو عمل غير منشور كان فوكو قد انتهى من كتابته عام 1966 حين دخل في عزلة طوعية في منزل العائلة في مقاطعة البواتو غرب فرنسا، بعد نشر كتابه الأول «الكلمات والأشياء»، وبعد أن طلب إعفاءً من «جامعة كليرمون-فيران» حيث كان يدرّس علم النفس، لكي يتولى منصباً في كرسي الفلسفة في جامعة تونس. انشغل فوكو ذلك الصيف بسؤال معرفي أساسي: ما هو الخطاب الاستثنائي الذي يمكن للفلسفة أن تبوح به ولا يمكن لأي نوع آخر من الخطاب - الأدبي والعلمي والديني والسياسي والفني ... - أن يبزّها فيه؟ ظلّت الإجابة على هذا السؤال طيّ الكتمان لأكثر من 57 عاماً، إذ كانت المفاجأة كبيرة عند اكتشاف مخطوطة «الخطاب الفلسفي» في مئة وعشرة صناديق الخاصة بفوكو التي تحوي 38,000 ورقة من أرشيفه، وُضعت في عام 2013 في المكتبة الوطنية الفرنسية من قِبل دانيال ديفير، صديق فوكو وأحد ورثته، والمسؤول عن نشر أعمال الفيلسوف بعد وفاته عام 1984. اكتشف القيّمون على المكتبة الوطنية المخطوط في شباط (فبراير)، بعد وفاة ريفير الذي كان يعتبر دائماً أن الصندوق الشهير الذي خرج منه هذا النص الاستثنائي يحتوي على دروس أُلقيت في جامعة تونس بين عامَي 1966 و1968، وأنّ فوكو لم ينهمك بتأليف أي كتاب قبل عمله المرجعي الضخم «المراقبة والمعاقبة» (غاليمار، 1975). كان تحديد مفهوم الفلسفة ودورها يكتسب أهمية خاصة بالنسبة إلى فوكو، الذي يشرع بداية في تشريح المشروع الفلسفي الديكارتي، إلا أنه ينتقل إلى وضع بصمته الخاصة في هذا العمل كما يوضحها الفيلسوف المعاصر كريستيان روبي: «بالنسبة إلى فوكو، لا يتعيّن على الفلسفة أن تكون أساساً نهائياً للمعرفة. فقد فقدت الحقيقة بعداً أصلياً»، فماذا يعني أن تكون فلسفة إذا لم تعد الفلسفة أساساً للمعرفة؟ يتساءل فوكو، بخاصّة أن وضعية هذا التخصص كانت حينها في صلب النقاشات في الساحة الفكرية الفرنسية، وكانت الأفكار البنيوية الجديدة حاضرة بقوة لتشويش الفلسفة في علاقتها بالعلم والحقيقة. إن قوة هذا النص تنبع أساساً من مهمة «التشخيص» التي يحددها فوكو للفلسفة كما مهمة إعطاء القدرة على الضوء التي أعطاها إيلوار للشعر. يكتب فوكو: «منذ فترة لا يمكن تحديدها – ربما منذ نيتشه أو منذ وقتٍ أقرب - حصلت الفلسفة على مهمة لم تكن مألوفة لها من قبل: مهمة التشخيص. قول ما يظهر في ما نراه يومياً. إنارة ما يُظهَر فجأةً في تلك الساعة الرمادية التي نعيشها. يجب على الفيلسوف أن يجعل من الفلسفة نبية اللحظة، أن يقول ببساطة «ما هو موجود»، كما يكرر فوكو. إنه «إنسان اليوم واللحظة»، ومهمته تتمثل في الإشارة «إلى ما يجعل زماننا مختلفاً ومختلفاً تماماً عن كل ما ليس هو عليه، أي الماضي». الفيلسوف إذاً في أطروحة فوكو هو الشخص القادر على فهم القوى المتغلغلة في العابر والنافل واليومي في حياتنا، وتنقية الخطاب اليومي من كل ما يعلق به من زيف وسذاجة وجهل من أجل «فتح كوة للتفكير والعيش بشكلٍ مختلف» وتعميق فهم العلاقة بالذات فضلاً عن العلاقة بالمؤسسة.

ملف

ستخطر في بالك أولاً عبارة زكريا تامر، التي أطلقها عنواناً لإحدى قصصه «دمشق الحرائق». كأنّ هذه المدينة منذورة للحرائق والمحن والنكبات، قرناً وراء آخر. كان حريق 14 تموز (يوليو) 2023 الذي اطاح جزءاً من حي ساروجة الاثري المسجّل على لائحة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو، النسخة الاخيرة للهبِ النيران. كنت اتتبع طريقي إلى موقع الحريق بحاسة الشّم تبعاً لهبوب رائحة الخشب المحترق، وبقايا الرماد، ونسيس النار، لكنني ساتوه في الازقة الضيقة، والاسواق المتداخلة، والبيوت الطينية القديمة. في مدخل الحيّ، ستباغتني سيارة شرطة تغلق الطريق إلى المكان، فاعود خائباً، لكنني بدورة التفافية ثانية، ساجد نفسي امام بوابة «متحف الوثائق التاريخية». كان الباب مغلقاً، فكّرت بان التقط صورة للواجهة الرخامية، ثم طويت الفكرة على الفور بسبب نظرات الريبة من اصحاب الدكاكين المجاورة. لا اعلم ما هو مصير نحو خمسة ملايين وثيقة نادرة تعود إلى حقبة العهد العثماني (سجلّات المحاكم الشرعية، ووثائق اصول العائلات الدمشقية، والفرمانات السلطانية، والصحف، والجريدة الرسمية «السالنامة» والمخطوطات). كان هذا الارشيف النفيس يضجّ في راسي، وانا اغادر «إسطنبول الصغرى» بإهاب المؤرخ الذي شهد حريقاً عن كثب، متجاهلاً ضجيج «سوق الحرامية»، وزحام الباعة تحت «جسر شارع الثورة»، والجدران الملطّخة بسواد الفحم. اقول لنفسي، وانا اعبر جسراً معدنياً نحو قلعة دمشق، وصولاً إلى فضاء الجامع الاموي: ما حاجتي للطباق والجناس والسجع في وصف الكارثة، على غرار ما فعله صلاح الدين بن ايبك الصفدي في «رشف الرحيق في وصف الحريق»؟ فهذه الكارثة تنطوي على بلاغة اخرى متعالية في توثيق طعم المرارة في الحنجرة. سجّل هذا المؤرخ وقائع الحريق الذي نشب في الجامع الاموي ومحيطه، اواسط القرن الثامن الهجري، لتتبعه حرائق اخرى، سبق ان وصفها ابن كثير بانها «من الحوادث العظيمة الهائلة»، في مقهى «النوفرة» المتاخم للجامع الاموي، ساستحضر مشهد الحكواتي، مستبدلاً نصوص الفروسية بارشيف النار، إذ كان على احدهم ان يقتفي تاريخ هذه المدينة المنكوبة حريقاً إثر آخر. كان تيمورلنك اول من اشعل الفتيل في موقد الفاجعة، حين امر بحرق دمشق في عام 1400، من دون ان يثنيه نداء العلماء بالتراجع عن قراره، ذلك انّ الغزاة يعملون على محو الذاكرة بالبطش اولاً. وهو ما سيوثّقه المقريزي بدّقة في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»، كما سيذكر البدير الحلّاق في كتابه «حوادث دمشق اليومية» بان تيمورلنك اتّخذ من حيّ ساروجة قاعدة لمنجنيقاته التي كانت تقصف قلعة دمشق قبل الاستيلاء عليها، ثم احرق دمشق. كان طيف عبد الرحمن باشا اليوسف، رئيس محمل الحج الشامي في العهد العثماني، يلوح مهرولاً في الشارع مستغيثاً، وهو يرى قصره الاثري وقد التهمته النيران امام عينيه. ولكن مهلاً، ماذا يفعل امبرتو إيكو في هذا المقهى الدمشقي العريق؟ على الارجح، كان يعيد ترتيب خرائط المتاهة التي تتعلّق بحريق دير «ساكرا دي سان ميكيلي»، الذي سيلهمه كتابة روايته «اسم الوردة». وهتك تاريخ الهراطقة او «وحوش الجحيم». صوت قذيفة اطلقتها مدفعية الجنرال الفرنسي هنري غورو من جبل المزّة نحو احياء دمشق القديمة، قبل نحو مئة عام، اخرجتني من متاهة «اسم الوردة» والدخان المنبعث من مكتبة الدير. إذ كان عمود من الدخان الاصفر يرتفع في سماء حي «سيدي عامود» عقاباً على دخول «مجاهدي الثورة السورية» الحيّ. يومان من الحرائق احالت المكان إلى «كومة حطب مشتعلة»، وفقاً لما روته الصحافية الفرنسية اليس بولو في كتابها «تحت القنابل». سيسمّى هذا الحي اليوم «الحريقة»، تذكيراً بتلك الفاجعة التي خلدها الشاعر احمد شوقي بمرثية، استهلّها بقوله «سَلامٌ مِن صَبا بَردى أَرَقُّ/ ودمعٌ لا يُكَفكَفُ يا دِمَشقُ». لا ماء في بردى اليوم كي يطفئ الحرائق، والنيران المشتعلة في الارواح المعذّبة، وإلا كيف نختزل حال شجرة رمّان عارية فيما تتدلّى ثمار متفحّمة من اغصانها، او شجرة زيتون عمرها مئة عام، في حرائق لا نهائية؟ اختر هلاكك إذا، بين الموت حرقاً، او الموت غرقاً، حين لا املك ثم اوقفني النفّري وقال لي «إذا رايت النار فقع فيها ولا تهرب، فإنها إن وقعت فيها انطفات وإن هربت منها طلبتك واحرقتك»

تقديم واختيار **خليل صويلح**

من منجنيق تيمورلنك إلى رماد شجر الزيتون

لا نسخة نهائية لأرشيف الحرائق

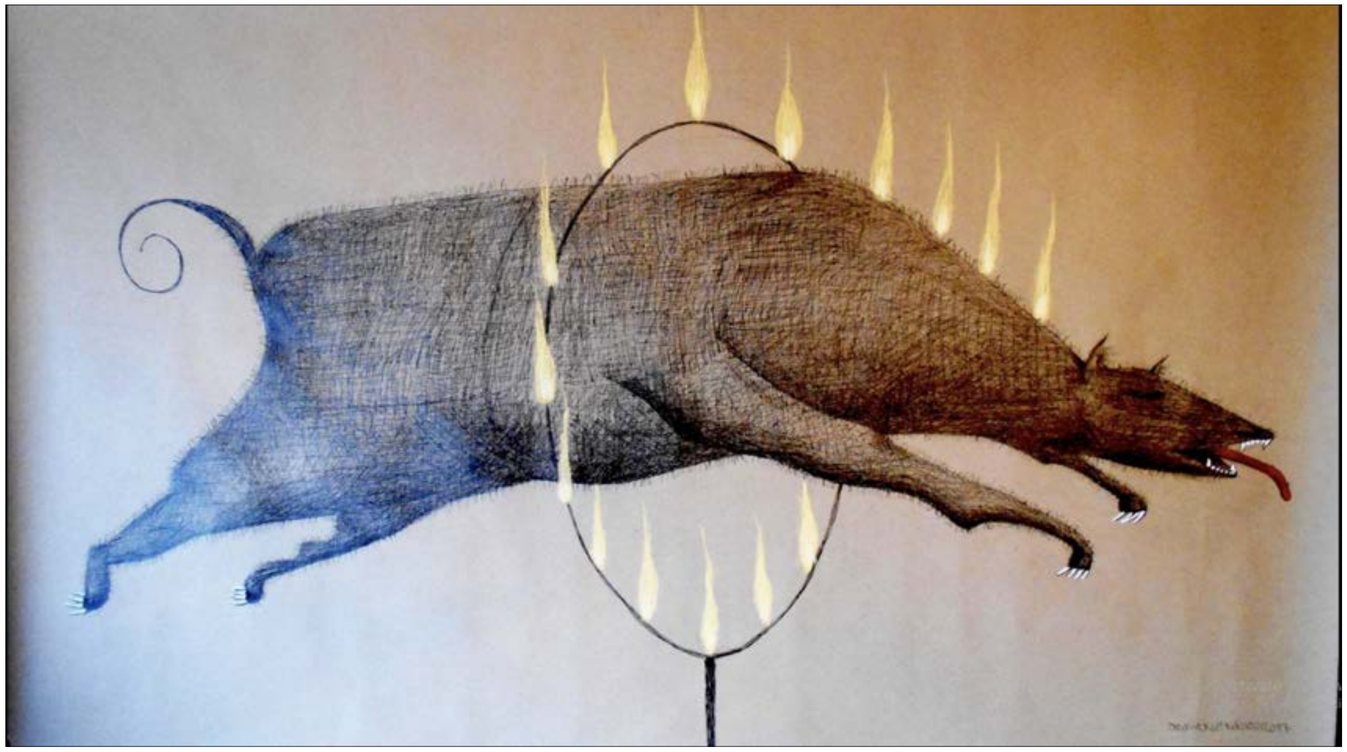

آني كوركدجيان ــ من دون عنوان (باستيل على ورق ــ 90 × 120 سنتم ــ 2017)

النار في المنام

ورؤية إشعال النار من دون سبب تعبّر عن كثرة الفتن بين الناس.
والنار في المنام تدل على الحرب إذا كان لها لهب وصوت، فإن لم يكن الموضع الذي رأيت فيه أرض حرب، فإنّها تدل على طاعون، وبرسام وجدري، أو موت يقع هناك.
من رأى في منامه أن ناراً وقعت من السّماء في الدور، والمحلات، فإن كانت لها ألسنة ودخان، فهي دليل على فتنة، وسيف يحلُّ في ذلك المكان.

«تفسير الأحلام» (ابن سيرين)

كان يوماً عاصف الريح

فدخلوا دمشق يوم الأربعاء آخر رجب ومعهم سيوف مشهورة وهم مشاة، فنهبوا ما بقي من الأثاث وسبوا النساء بأجمعهن وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من عمره خمس سنين فما دونها وساقوا الجميع مربّطين في الحبال. ثم

> شهدت الأندلس حرقاً أكثر من 70 مكتبة إسلامية تضم مئات آلاف الكتب، بما فيها كتب ابن حزم والغزالي وابن رشد

طرحوا النار في المنازل وكان يوماً عاصف الريح، فعمَّ الحريق البلد كلها وصار لهب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وعملت النار ثلاثة أيام آخرها يوم الجمعة. وأصبح تيمورلنك يوم السبت ثالث رجب راحلاً بالأموال والسبايا والأسرى بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق وزالت أبوابه وتفطر رخامه ولم يبقَ غير جدره قائمة. وذهبت مساجد دمشق ومدارسها ومشاهدها وسائر دورها وقياسرها وأسواقها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية قد أقفرت من الساكن وامتلأت أرضها بجثث القتلى ولم يبقَ بها دابّة تدب إلا أطفال يتجاوز عددهم الآلاف، فيهم من مات وفيهم من يجود بنفسه.

«السلوك لمعرفة دول الملوك» (المقريزي)

الماء والنار

وَما الجَمعُ بَينَ الماءِ وَالنارِ في يَدي/ بِأصعَبَ مِن أَن أَجمَعَ الجِدَّ وَالفَهم
(المتنبي)

رماد

دار حيّ أصابهم سالف الدهر
فاضحت ديارهم كالخلال
مقفرات إلاّ رماداً غبيًا
وبقايا من دمنة الأطلال
(شاعر مجهول)

موقد النار

فما وجدت شيئاً ألوذ به
إلاّ الثمام وإلاّ مَوْقِدُ النار
(النابغة الذبياني)

نار الغرام

فلا تحسبي أني على البعد نادم
ولا القلب من نار الغرام مُعَذَّبُ
(عنترة بن شدّاد)

حتى صارت قاعاً صفصفاً

ثمّ أمر حضرة الباشا أن يوجّهوا المدافع على سوق ساروجة، فوجهوا ما عليهم وأمر بضربها بالكلل فضربت، فما كان باقل من حصة يسيرة حتى احترقت الدور وتهدّمت البيوت، واحترق بيت القلطقجي وعدم عن آخره، ونُهبت العساكر كل ما فيه، ثمّ سرى النهب في بقية الدور، فنهبوا وقتلوا ومثّلوا وبدّعوا، وذهب الصالح والطالح، حتى صارت محلة سوق ساروجة قاعاً صفصفاً

«حوادث دمشق اليومية» (البدير الحلّاق)

في وصف حريق الجامع الاموي

انظر إلى الجو، كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع، فبادرت إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار، وقد نشرت في حداد الظلماء معصفرات عصائبها، وصعدت إلى عنان السماء عذبات ذوائبها، وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر.

«رشف الرحيق في وصف الحريق» (الصفدي)

يوم الحشر

ليس على سكان عامودا إلاّ أن يُطفئوا الحريق بالتراب، وبالأيدي، وبالأكباد. لقد انشطر التاريخ بعد ذلك الحريق كفلقتي مشمشة. فإن سَرَدَ أحد أمراً، سنَد الكلام بجملة «ما قبل الحريق» أو «ما بعد حريق السينما». لم تمضِ نصف ساعة حتى دوّى انفجار مريع، إذ لم يحتمل المحوّل الكهربائي البالي عرضين متواصلين. حشرَ الأطفال بعضهم بعضاً ففوتوا على أنفسهم فرص الهرب. صاروا يتوجهون كالبرقوق الأحمر، وتتفجر جماجمهم. من احترق احترق، ومن لم يحترق خنقه الدخان.

«سيرة الصبا» (سليم بركات)

اللهب العظيم هو ما يتبع شرارة صغيرة.

«الكوميديا الإلهية» (دانتي أليغييري)

حريق، حريق

كانت تتذكر كيف تتحكم بالأمر كي تهيّئ فتيلة طويلة الاشتعال، أوقدتها، رسم اللهب شكل خنجر صغير الحجم، ينير كنصلي المقص الحادين. وبدأت مع السرير المرتفع، راحت ألسن اللهب تلعق بجدية ملاءات الأسرّة القذرة، وبعد ذلك اشتعلت، بدأت بالسرير في الوسط، ثم تلاه الأسفل، وشمّت المرأة همسيس شعر رأسها، كان يجب عليها أن تكون حذرة، فهي المرأة التي عليها أن تشعل الحريق، وليس عليها أن تموت، كانت تسمع صراخ الأوغاد، وفي تلك اللحظة عنّت لها فكرة سريعة، افترضت أنهم يملكون ماء وبإمكانهم إطفاء الحريق، وزحفت تحت السرير يلفها اليأس، أخذت تشعل بالولاعة الملاءات جميعها، هنا، هناك، وفجأة تضاعف اللهب، وتحوّل إلى ستار هائل من النار، وتدفق الماء من أمامه، وجاءته رشقة، ولكن من دون جدوى، فقد تحوّل جسدها طعاماً للنار. ما الذي هنالك، لا احد يستطيع أن يخاطر في الدخول، ولكن يجب على مخيالنا أن تنقذنا بشيء ما، فالنار تسري بسرعة من فراش إلى فراش، كما لو أنها تريد أن تشعلهم جميعاً في الوقت ذاته، ونجحت، وفقد السفاحون بطريقة عشوائية ما تبقى بحوزتهم من ماء، والآن يحاولون الوصول إلى النوافذ، وتسلّقوا أعلى الأسرة بارتباك التي لم تنهشها النار بعد، ولكن سرعان ما وصلت النار، تزحلقوا، سقطوا، مع كثافة حرارة اللهب. أخذ زجاج النوافذ يتشقق، ويتشظى، وهبّ الهواء يصفر عذباً مما زاد من اشتعال اللهب، نعم، إنهم لن ينسوا، صرخات الغضب والخوف، و عواءات الألم وسكرات الموت، وهنا، الشيء بالشيء يذكر، وعلى كل حال، إنهم سيموتون تدريجياً، وسكتت المرأة وما زالت تمسك بيدها ولاعة لبعض الوقت.

في هذا الوقت هرب النزلاء العمي الآخرون برعب باتجاه الممرات التي ملأها الدخان، وهم يصرخون، حريق، حريق..

«العمى» (خوسيه ساراماغو)

السنة اللهب

سقط السراج فوق كومة الكتب التي سقطت على الطاولة حيث تراكمت الكتب، الواحد فوق الآخر، بصفحاتها المفتوحة. وسال الزيت، واضطرم النار حالاً في ذلك الرّق وتخرج منها شرارات تنطلق في كل اتجاه. فصاح غوليالمو «اسرع، أطفئ تلك النار، وإلا سيحترق كل شيء هنا».

المكتبة شعلة عظيمة، كما لو كانت تلك الصفحات الألفية تتوق منذ قرون إلى الاحتراق وتنعم بإرضاء تعطشها للحرق مرّة واحدة.. ولست النار كتاباً أقدم من الكتب الأخرى فاشتعل اشتعالاً سريعاً قاذفاً إلى أعلى بلسان من اللهب. وشفرات الريح الرهيفة التي يمكن أن تطفئ شعلة ضعيفة، كانت على العكس تقوى الشعلة الكبيرة الحيّة، بل وتخرج منها شرارات تنطلق في كل اتجاه. فصاح غوليالمو «اسرع، أطفئ تلك النار، وإلا سيحترق كل شيء هنا».

بقي الدير يحترق لمدة ثلاثة أيام، وثلاث ليال، ولم تجد نفعاً المجهودات الأخيرة لإنقاذه. منذ صبيحة اليوم السابع من إقامتنا في ذلك المكان، عندما فهم كل الذين بقوا على قيد الحياة أنه لم يعد بالإمكان إنقاذ أي مبنى، عندما انهارت الأسوار الخارجية للبناءات الأكثر روعة، وابتلعت الكنيسة برجها في انطوائها على نفسها، عندئذ أعوزت الجميع القوة لمكافحة العقاب الإلهي. فضعف حماس البحث عن الدلاء القليلة من الماء، بينما كانت قاعة المجلس تحترق ببطء.

«اسم الوردة» (أمبرتو إيكو)

ذاكرة النار

في العام 1499، في غرناطة، ألقى الأسقف ثيسنيروس إلى النار الكتب التي تتحدث عن ثمانية قرون من الثقافة الإسلامية في إسبانيا، بينما كانت تحترق، في الوقت نفسه، ثلاثة قرون من الثقافة اليهودية في محارق محاكم التفتيش.
في العام 1562، في يوكاتان، أرسل الراهب دييغو دي لاندا إلى المحارق ثمانية قرون من آداب المايا.
كانت هناك حرائق سابقة في العالم، ذاكرات أُلقي بها إلى النار، وحرائق كثيرة أخرى تالية.
في العام 2003، عندما أنهت القوات الغازية احتلال العراق، طوّق المنتصرون بالدبابات والجنود آبار النفط، واحتياطات النفط، ووزارة النفط، وكان الجنود، بالمقابل، يصفّرون وينظرون في اتجاه آخر، عندما أفرغت كل المتاحف، وسرقت كتب ألواح الطين المشوي التي تروي أولى الأساطير، وأولى القصص، وأولى الشرائع المكتوبة في العالم.
وبعد ذلك مباشرة، أُحرقت الكتب الورقية. اشتعلت مكتبة بغداد الوطنية، وتحوّل أكثر من نصف مليون كتاب إلى رماد. كثير من أول الكتب المطبوعة باللغة العربية وباللغة الفارسية ماتت هناك.

«أفواه الزمن» (إدواردو غاليانو)

حرائق متقدة

يخطئ من يقول إنه لا بد لكل نار من أن تنطفئ عاجلاً أو آجلاً. هنالك غراميات هي حرائق متقدة إلى أن يخنقها القدر بضربة من مخلبه، وحتى في هذه الحال تظل بعض الجمار ساخنة وجاهزة للتأجج بمجرد وصول نفثة أوكسجين صغيرة إليها

«العشيق الياباني» (إيزابيل الليندي)

رائحة الروث

ثم اضرم النار في أقراص الروث الذي نثرته الأبقار نهاراً من الردهة وحتى قاعة الاجتماعات

«خريف البطريرك» (غابرييل غارسيا ماركيز)

451 بدرجة فهرنهايت

يرسم الروائي الأميركي راي برادبيري في روايته 451 Fahrenheit الصادرة عام 1953 وهي درجة الحرارة التي تحترق عندها الكتب، صورة سوداء، حيال تحريم التفكير وقهر العقول والارتهان إلى الرقابة الصارمة، ما يقود إلى مجتمع بلا ذاكرة وبلا تاريخ. بدرجة الحرارة نفسها، أُحرقت ملايين الكتب إذ عصفت النيران في مكتبة الإسكندرية أعظم مكتبات العالم القديم على يد يوليوس قيصر، فأبيد نحو مليون كتاب، بينها أعمال هوميروس ومكتبة أرسطو. أما الحريق الذي تعرّضت له خزانة الكتب في بغداد القرن الثالث عشر، فقد أسفر عن إبادة نحو عشرة آلاف مجلد من نفائس العلوم، وكان للغزو الصليبي والمغولي للشام حصته من الدمار، إذ أحرق هولاكو مدارس دمشق وخزانة كتبها، التي كانت تحتوي على أكثر من أربعمئة ألف مجلد، وتشير الروايات إلى أن النار ظلت مشتعلة طيلة ثلاثة أيام كاملة ولم يتبقَ من تلك المكتبات إلا الجدران والحوائط فقط. وفي السنوات التي أعقبت سقوط الأندلس، شهدت حرق أكثر من 70 مكتبة إسلامية تضم مئات آلاف الكتب، بما فيها كتب ابن حزم والغزالي وابن رشد.

على المقلب الآخر، محا الألمان أثناء الحرب العالمية الأولى، «مكتبة لوفين» في بلجيكا، في حريق امتد إلى ستة أيام، كما دمّروا المدينة القروسطية ومخطوطاتها التي تربو على 750 مخطوطاً قروسطياً، وأعادوا إحراق المكتبة نفسها ـ بعد إعادة إعمارها ـ في الحرب العالمية الثانية. واستخدم الجيش العراقي، في أثناء غزوه الكويت، المكتبات ومراكز المعلومات والمدارس كمراكز قيادة ومستودعات ذخيرة، ودُمّر نحو 43 في المئة من مخزون الكتب في المكتبات المدرسية، وأُتلفت آلاف الكتب، كما شُحنت كتب أخرى إلى بغداد، واستخدم جزء منها كوقود للطهي.

ويروي أحد الكتّاب الصينيين المجهولين ذكرياته عن كوارث الثورة الثقافية قائلاً: «أحرقتُ جميع كتبي ومخطوطاتي، لكن الكتاب الذي أعمل على إنجازه، صار حياتي، فكيف كان لي أن أدعه يضيع؟ وعلى الرغم من أنهم أحرقوا مكتبتي وأوراقي، فإنهم لم يحرقوا ذاكرتي. فبدأت أكتب سرّاً، مستدعياً الكلمات التي اختزنها من قبل، وخبأت الصفحات في لحافي». وبالآلية نفسها حدثت فظائع لا تغتفر في يوغوسلافيا لحظة تفكّكها، فكانت المعالم الثقافية مثل الكنائس والمكتبات أهدافاً عسكرية، ومحاولة وحشية لنزع الهوية عن المكان. دمّر الصرب نحو 210 مكتبات كرواتية، و370 متحفاً ودار محفوظات، وقصف الجيش الصربي مدناً أثرية، وأُضرمت النيران في «مكتبة تاون ميوزيام»، وبلغ العنف أقصاه ضد البوسنة، ضمن خطة محكمة لمحو الثقافة الإسلامية، وإعدام صفوة المفكرين فيها، ودُمّرت المقابر والأضرحة والمكتبة الوطنية، والمعهد الشرقي في سراييفو الذي يضم مخطوطات إسلامية ووثائق عثمانية وصكوكاً ملكية. والحال، فإنّ حملات الإبادة لم تتوقّف، منذ أن اندلعت النيران في كتب ابن رشد ذات يوم حزين من عام 1194 في إحدى ساحات إشبيلية بأمر من الأمير يوسف يعقوب المنصور. كان خادم ابن رشد ينتحب بحرقة وهو يرى النيران تلتهم المخطوطات النفيسة، فلطالما سهر الليالي برفقة سيّده وهو منهمك بتدوين أفكاره. ربّتَ الفيلسوف على كتف تابعه قائلاً «إذا كنت تبكي حال المسلمين فاعلم أن بحار العالم لن تكفيك دموعاً، أما إذا كنت تبكي الكتب المحروقة، فاعلم أن للأفكار أجنحة وهي تطير».

قصة

إدريس الشرايبي: الجِراب

إدريس الشرايبي (1926-2007) من أهمّ أسماء الجيل الأوّل من الكتّاب المغاربة بالفرنسية. تلقّى تعليماً تقليدياً في الكُتّاب القرآني في الرباط، ثمّ تعليماً فرنسياً حديثاً في الدار البيضاء. استقرّ منذ عام 1945 في فرنسا. تميّز روايته «الماضي البسيط» (1954) من النصوص التأسيسيّة للأدب المغاربي الفرنكوفوني. النصّ التالي مقتطف من مجموعته القصصية «من كل الآفاق»

ترجمة **عبد القادر وساط**

جبلفان رابوجيّ – «الصفاءة الزرقاء» (أكريليك على قماش، 2019)

حين بلغ المَضاءة، كان يزحف على ركبتيه، وكانت ركبتاه تنزفان. وجهه أيضاً كان يسيل منه الدم. كان قد فقد فردةً من حذائه خلال الطريق (خلال الهرب، خلال الانحدار) وكان يلهث مثل كلب من كلاب الصيد. وتلك الأشياء التي كانت تُسمّى بنطلوناً ومعطفاً وقميصاً قد تحولت الآن إلى مِزَق. لكنه كان قد بلغ المَضاءة وهذا هو الأهمّ. وخُيِّل إليه أنه نَجَا.

شرعَ يستعطف بصوت مسموع:

- أيتها الساقان، يا ساقي، لا تَضعفا، ولا تَخُونَانِي!

وبعد أنْ أرهف أذنيه جيداً، بدأ يصرخ:

- من هناك؟ من هذا الذي يتكلم؟

أصاخ السمعَ من جديد. كانت حواسه الخمس قد اختُزِلَتْ كلها في واحدة، هي حاسّة السمع. أخذ يسأل بصوت فظ:

- هل يوجد أحد هنا؟ هيَا، اخرجْ من مَكْمَنك، كائناً مَنْ كنتَ. أنا لا أريد بك سوءاً. اسمع جيداً ما أقول: إن رجلاً بائساً مثلي لا يضمر السوء لأحد، فما عليك سوى الخروج، شخصاً مشرداً كنتَ أمْ كلباً أمْ دركياً. أنا أؤكد لك أني سمعتك، وأعرف أنك هناك، فما لك تتباطأ في الظهور؟

لكنّه لم يسمع جواباً، باستثناء أصوات الغابة. صرخ بكل قوته:

- لقد سمعتُك تتحدث إلى ساقيك وتتوسل إليهما ألا تخونا. أليس كذلك؟ كان الجواب الوحيد الذي سمعه هذه المرة عبارة عن ضحكة عالية. ولما أدرك أنه هو الذي يضحك وليس سواه، أمسك فكه بكلتا يديه، وضغطه بقوة آلية. استمرّ في الضغط إلى أن تحولت الضحكة إلى صرخة ألم، وعندئذ، توقّف ثم قال بنبرة حاولَ أن يجعلها هادئة:

- بوجمعة، إياك أن تُجَنّ! بوجمعة، إياك أن تضحك أو تبتسم! ليس هناك ما يدعو إلى الضحك أو الابتسام! بوجمعة، مُتّ فرداً من حذائه خلال الطريق (خلال الهرب، خلال الانحدار) وكان يلهث مثل كلب من كلاب الصيد. وتلك الأشياء التي كانت تُسمّى بنطلوناً ومعطفاً وقميصاً قد تحولت الآن إلى مِزَق. لكنه كان قد بلغ المَضاءة وهذا هو الأهمّ. وخُيِّل إليه أنه نَجَا.

فانهض إذن، إني أمرك بالنهوض!

أجاب بوجمعةَ بصوت لا يقل هدوءاً:

- لستُ قادراً على النهوض، لأنني في غاية التعب، فأنا لم أتوقف عن المشي منذ ثلاثة أيام وثلاث ليال. وما الجَمَل وما القدرة على التحمل؟ أقول لك: إن الجمل نفسه سيحتاج إلى النوم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال.

- ما لَنا وللنوم؟ قال بنبرة متذمرة. إذا أنتَ لم تنهض فسوف أؤدبك بكيفية لا عهد لك بها.

- ماذا ستجني من هذا؟ لا أنت ولا أنا نستطيع أن نغادر هذا المكان قبل ثمانية أيام.

- اسمع جيداً ما أقوله لك، هل تسمعني؟

- إني أسمعك.

- إذا أنت رفضتَ الوقوف، إذا لم يقبل أي عضو من أعضائي أن يتعاونَ مع الأعضاء الأخرى، حتّى يستوي هذا الهيكلُ واقفاً بأكمله، فكُنْ على يقين أن شخصاً ما سيموت هذه الليلة.

- لقد فهمتُ هذا جيداً، بل فهمناه مثل رجل واحد، بساقيه وذراعيه، بجذعه وعظامه، بجلده وبكل أعضائه التي تنعتها أنت بأنها خائنة. بيد أني شرحتُ لك كل شيء، نعم، لقد شرحنا لك كل شيء. صرخ قائلاً:

- كلا، لا يمكنني أن أقبلَ هذا الكلام. إني أمركم بالوقوف وبمواصلة السير، بصرف النظر عن الاتجاه الذي سنسير فيه، المهم هو أن نبلغ المَضاءة الحقيقية، التي تركنا فيها الجراب.

بقي بوجمعةَ وقتاً طويلاً يخاطب نفسه بهذه الكيفية، شاتماً ثم مستنهضاً، ثم موجهاً لنفسه بعض اللكمات القوية. وبعد أن برّح به الألم، اكتشف أنه لم يَستَطِع بَعدُ على قدميه، ولو كان جملاً مريضاً لاستطاع ذلك.

اكتشف أنه لم يستو حتى على ركبتيه، كما كان يحسب، وإنما كان متمدداً على بطنه.

ورغم ذلك، كان يردد مع نفسه أنه قد نجا، فهو الآن في المَضاءة وذلك هو الأهم. كان يتذكر جيداً - ليس بذاكرته فحسب، بل بكامل جسده، بكامل قناعته وبكامل محنته - أنه ترك الجراب في المَضاءة، وأنه انطلق مثل حصان، بحثاً عن بقرة أو شاة أو فرس أو أي حيوان يمكنه أن يقوم بحلبه وأن يحتفظ بالحليب في علبة المصبرات الفارغة، التي التقطها من إحدى الحُفَر، كان يتذكر أنه اجتاز عندئذ مضاءاتٍ أخرى غير هذه. كان يفكر ويستدل بالطريقة البطيئة لوالدته العجوز، حين تعد على أصابعها: لنر الآن، كان يقول لنفسه، لقد وصلتُ هنا، بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من المشي، وهذا الضوء القليل يكفي بالكاد لأرى ما حولي في هذه المَضاءة. تُرى، هل هو غسقُ الفجر أم غسقُ المغيب؟ على أية حال، فحيثما وليتُ وجهي لا أرى أثراً للجراب. لقد تركتُه إذن في المَضاءة الأخرى، تلك التي عبرتها باحثاً عن الحليب.

المَضَاءة أو الفرجة: CLAIRIÈRE منطقة خالية من الأشجار وسط الغابة.

فصل من رواية

وَصفاتٌ سرِّية (*)

ريمة راعي

خلال حياتي الحافلة بالعواطف المبالغ فيها، رأيت نساءً كثيرات يبكين بسبب الحب باشكاله المختلفة، وأساليبه المبتكرة في تعذيب القلوب، من دون المساس بهيبة مكانته وكونه أكثر كائنات الحياة براءة وعذوبة.

وعندما كنت أحضنهنّ لنتبلّل بدموعنا المشتركة، أقول لهنّ بلهجة العارفة التي خبرت كل شيء: «هذا الحزن ليس وشماً دائماً، تابعن البكاء، وسيسيل حزنكنّ مع الدموع ويختفي».

كنّ يصدقنني، ونخيط معاً تلك الجراح الغائرة، وحين تنزف مجدّداً بسبب حادث ما، لا نلوم الحوادث، بل رداءة الخيوط. ثمّ، وبرحمة الوقت الذي يمضي، تتآمل الندبات التي تسبّبت بها الخياطة غير الماهرة، ونقول: «لا بأس، كنا شجاعات كفاية كي نحب»!

لا اعلم إلى أيّ حدّ يمكن للدموع أن تشكّل بداية جيدة لرواية يرغب شخصٌ ما في قراءتها، لكن، لا مناص من الاعتراف بحقيقة وجود دموع كثيرة في حكايتي، أنا المولودة في بلاد وقعت في مصيدة حرب لا يُحتام لها، ويعيب خلقيّ في القلب، يهيّئني للموتّ حباً في أيّة لحظة، وبأسم يوحي بقدري المرسوم منذ ولادتي: تتوقّف عن السيلان.

لكنّ هذه الدموع ليست نذيراً بحكاية مليئة بالغمّ، كما يبدو عليه الأمر، لأنّ حكايتي تفيض بالحب، حب من النوع الذي يصلح أن يكون حكاية تروى.

حين أخبرت أبي أنّني سأكتب روايةً، هزّ رأسه وضحك، ولم يكن صعباً عليّ، أنا اللصيقة به منذ ولادتي، أن أفهم معنى هذه الضحكة؛ إنّها ضحكته التي حافظ عليها طازجةً طوال حياته، ويطلقها أمام تصرّفات النساء اللواتي يعتبرهنّ، من دون أي استثناءات عادلة، مجنونات وخياليّات وعاجزات عن العيش بسلام.

● لماذا تفكّرين في كتابة رواية يا ابنتي؟ أتذكّر أنّكِ كنتِ تكرهين كتابة وظائفك، واستدعيت مرّات عديدة إلى المدرسة لهذا السبب!

● أريد أن أحكي حكايتي للناس.

● هل سألتِ أحداً منهم إن كان مهتماً؟

● أنت أول شخص أسأله.

● هل ترين هذه الغيوم السوداء؟ ثمة عاصفة قادمة، عليّ أن أعيد الدجاجات إلى القنّ، قبل أن تمرض تلك الخبيثات.

نعم، هذه كانت طريقة أبي في مساندتي، والتي، فضلاً عن نجاحها في إحباط همّتي، جعلتني أطرح أسئلة وجوديّة حول الجدوى من إخبار الحكايات لآخرين، في حين يمكن رواياتها ببساطة أمام مرآة.

والإجابة القليلة الوحيدة التي راحت تلحّ عليّ، هي رغبتي في أن تبقى هذه الحكاية حيّة في ذاكرة شخص آخر، يمكن أن يذكّرني بها حين أصبح عجوزاً خرفة، وأنسى اسمي وأسماء الذين أحببتهم، وكلّ ما حدث لي في تلك الأيّام التي كنت أملك فيها قلباً مرحّباً باحتمالات الحب، ووصفات طبخ سرّية أورثتني إيّاها أمّي، وتولّت مهمّة تلبية حاجاتي العاطفيّة منذ ولدت، وكانت البديل المنطقي لديّ عن استخدام الشعر حين أحببت. في ذلك اليوم، افتقدت أمّي كثيراً، وفكّرت في أنّها لو كانت هنا لشجّعتني، ولربما أطلقت زغرودة طويلة، فأمّي التي تحتفي بكلّ شيء، كانت حتماً ستطلق في وجهي عصافير فرحها المعافى والنظيف، من دون طرح أسئلة أو استفسارات تثير الكرب، وكانت ستدعوني، وهي تهزّ رأسها، للتسامح مع فظاظة أبي، التي كانت تحسبها ميراثاً ثقيلاً من سلالته التي يمتلك جميع أفرادها قلوباً صغيرة الحجم، وعقولاً مشتّتة تحدث فيها أشياء كثيرة لا علاقة لها بما يشغل بال النساء، وإن كنت أرجّح أنّ الأمر ليس متعلّقاً بسلالة أبي وحجم قلوبهم فقط، بل هو قدر خاص بالرجال عموماً، ناجمٌ عن نقص الأعاجيب التي يمكن لهم اختبارها، مقارنة بتلك التي تشكّل حياة النساء، بدءاً من أعجوبة صناعة الأطفال ومراقبتهم وهم يتشكّلون داخل أحشائهن، وصولاً إلى أعاجيبهن الصغيرة الآتية من قدرتهن الفطريّة على منح الحياة أيّ شيء يمرّرن أصابعهن عليه، ويمكن مشاهدة تلك النزعة الكمالية بمجرد مراقبة سلوك امرأة أمام أشياء الحياة الناقصة: قميص ممزّق، أزرار مخلخلة، دهان حائط متقشّر، سلّة متقوبة، جرح مفتوح، وجع قلب، دموع لا تتوقّف عن السيلان.

لكلّ نوع من هذه الأنواع التافهة تميمة خاصّة، تستخدمها المرأة كي تعيدها جديدة ولامعة كما على عرش كلّ هذه الأعاجيب، موهبتها الأصيلة الخاصّة بتحويل أيّ مكوّنات حياتيّة تقع تحت يدها إلى أطباق ساخنة، ومخبوزات تفوح برائحة البهجة.

وأنا التي ولدت في منزل، يرى ساكنوه أنّ أهم غرفة فيه هي غرفة المطبخ، تعوّدت عندما كنت طفلة صغيرة تتدرّب على استخدام حواسها، أن أفتح فمي كي تضع أمّي فيه ملعقة مليئة بشيء ما تطهوه، فأهزّ رأسي بطريقة تؤكّد لها أنّ اللذة المرغوبة قد تحقّقت، وإن لم يهتزّ رأسي بالطريقة الصحيحة، تعيد أمّي النظر في مكوّنات طبختها من جديد، علماً أنّها، مع مرور الوقت، توقّفت عن هذه الممارسة التي كانت تشعرني باهميتي، بعد أن طوّرت حاسة عجيبة تجعلها تعرف نواقص طبختها بمجرّد شمّ رائحتها، وهي تُطهى على النار؛ كانت تأخذ نفساً عميقاً، ثمّ ترفع حاجباً، وتقول: «ينقصها رشّة فلفل»، أو: «لا بدّ من ملعقة دبس رمان، أو عصير ليمونة». ونادراً ما كان يخيب إحساس أمّي الفريد باحتياجات طعامها، الذي ينضج بجلال فوق نار هادئة.

وعلى الرغم من أنّ غالبيّة المطابخ في أنحاء الكرة الأرضيّة قد استغنت عن استخدام السمن البلدي والخضر واللحم بالسمن الحيواني، مؤكّدة أنّه من الخبث اتهام اللقمة الطيّبة بأمراض القلب والشرايين، وأنّ المسبّب الوحيد لأيّ خلل يطرأ على عمل الجسد هو الحزن والصحبة المثيرة للغمّ، ولو كان ثمّة عطر يمكن اختراعه ويحمل اسم «البيت»، لكان بلا شك، رائحة مطبخ بيتنا الذي تمتزج فيه رائحة المقليّات بالسمن الحيواني مع المخبوزات الطازجة، ورائحة خلطات التوابل السرّية، ورائحة أمّي ونداءاتها المبهجة: «تعالوا كلوا يا أولاد». البيت، بيتنا، بات ترنيمة حزن يتردّد صداها في قلبي طوال الأيّام التي أمضيتها بعيدة عنه، وعن مطبخه الكبير، مصنع السعادة والوفرة، الذي كنت أستعيد رائحته بأسى، حينما أتجوّل في البيت المستأجر الذي انتقلنا للعيش فيه في مدينة اللاذقيّة، والذي لا يشبه في حال من الأحوال «البيت»، فعلى الرغم من وفاة أمّي منذ أكثر من سنتين، فإنّ أشياءها التي لا تزال في مكانها، كانت تمنع عنّي الشعور بأنّني في العراء، كما في هذا البيت الغريب، الخالي من أيّة رائحة أو بهجة، فقد خلّفتْ الروائح والبهجات كلّها ورائي يوم حزمت حقائبنا، أسوة بقيّة أهالي قرى ريف اللاذقيّة الشمالي المحاذية لجبال الأكراد، حيث تمركز آلاف المسلّحين الذين أتوا من مختلف أصقاع الأرض للمشاركة في الحرب على بلدي سورية، وباتوا تهديداً لسكّان تلك القرى.

كان أبي جالساً كما هي عادته تحت شجرة التوت أمام البيت، مستنداً بذقنه إلى عصاه، فيما أحاول بياس جمع أكبر قدر من الذكريات قبل مغادرتنا، خوفاً من أن نعود يوماً ونجد البيت منهوباً أو مدمّراً، كما حدث مع سكان البيوت المتروكة في أنحاء البلاد. وخلال مهمّتي المستحيلة، اكتشفت كم أنّ البشر هشّون وعاجزون عن المضي قدماً من دون آثار حياتهم الماضية.

وكنت أستعيد في خيالي مشاهد الجرّافات الإسرائيليّة، وهي تهدم البيوت في فلسطين أمام أعين أصحابها الهلعة، وأتساءل إن كان قد تسنّى لهم جمع ذكرياتهم منها، لكن، كيف يمكن جمع رائحة بيت قبل مغادرته؟

كنت أتأمل صورة مؤطّرة بإطار ذهبي تتوسّط الحائط في غرفة الجلوس، ويظهر فيها أخي غدير بملابسه الخضراء المموّهة، محتضناً سلاحه، وعيناه تضيئان بنظرة فارس منقذ. أخي الصغير الذي كبر فجأة، ولم يعد مكاناً له ان يعيش مثلنا خارج صورة. وإلى جانب صورة أخي، صورة أخرى أصغر حجماً لأبي وأمي، وهما جالسان على أريكة تتّسع لشخصين، ومتلاصقان بالفة، من دون ابتسامات واضحة على الشفاه، على الرغم من وجودها في أعينهما، ونقف حولهما نحن، أولادهما الأربعة: أنا وهند وغدير وسارية، نبتسم جميعاً، ونحاول استبقاء الأحداث الأشقياء الثلاثة، فيما يحاولون هم الهرب لاستكمال ألعابهم الدنيويّة بالغة الأهميّة. زوجة أخي الأكبر لا تظهر في الصورة، لأنّها تولّت مهمّة التصوير.

لم يكن ثمّة مكان يتّسع في الحقائب محدودة العدد، إلا للضروري، لكنّني كنت أعلم أنّني لا أستطيع أن أغادر البيت، وأترك هاتين الصورتين وحيدتين؛ مسحت دموعي، ونزعتهما عن الحائط، وألقيت نظرة اعتذار على المسمار الذي سيبقى عارياً ومكشوفاً إلى أجل غير معلوم.

في المطبخ، وقفت أتأمّل الرفوف المرصوفة ببرطمانات المربّيات والمكدوس والزيتون والمخلّلات، وفكّرت في أنّ أمي لو كانت موجودة لما قبلت أبداً أن تترك هذه الفرادیس وراءنا. كانت ستقول لنا إنّ روح البيت مختزنة في هذه البرطمانات، وسيكون فألاً سيئاً أن نتخلّى عنها. وعلى الرغم من شعوري بأنّ حسّ الطالع قد فارقنا منذ وقت طويل، ولن يتسبّب التخلّي عن هذه البرطمانات بضرر ملحوظ على طوالعنا، فقد قرّرت ألا أخالف حدس أمّي، فاخترت واحداً منها كي يرافقنا إلى البيت الجديد.

مددت يدي، وتناولت بثقة برطمان مربى الكرز من بين البرطمانات العديدة، مدفوعة بقناعتي بأنّ حلاوة الكرز يمكن أن تقدّم حلّاً سريعاً لأيّ مشكلات طارئة تحدث في الروح، لكنّني لم أكن أعرف حينها أنّ ثمّة حكايات كاملة يمكن أن تبدأ بسبب زيادة في ضربات القلب، يتسبّب بها الإفراط في تناوله.

وبعد أن جمعت برطمانات التوابل الصغيرة في علبة كرتونيّة كبيرة، خرجت من المطبخ بسرعة، متجاهلة بقسوة مفاجئة، نداء ملاعق أمّي الخشبيّة، وصحونها البيضاء المزركشة بنقوش أزهار، والطناجر النحاسيّة الكبيرة التي لم تتوقّع أن نهجرها يوماً.

ولاحقاً، وسط كلّ هذا العتاب الصامت، كان عليّ أن أتسمّر أمام خزانتي، ثمّ أمام خزانة أبي، كي أختار الملابس التي عليّ أن أضعها في الحقائب.

هل أحزم الملابس الصيفيّة فقط؟ أم عليّ أن أكون أكثر تشاؤماً، وأفكّر في شتاء بارد قادم؟

ونظراً إلى كون أبي يحتفظ بملابس عمرها خمسون سنة، بما فيها ملابسه العسكريّة التي خلعها منذ أكثر من عشرين عاماً، فإنّ معرفة الضروري من هذه الملابس السرمديّة، كي أضعه في الحقيبة محدودة الحجم، بدت مهمّة مستحيلة، لذا أغلقت باب الخزانة، وخرجت إلى حيث يجلس أبي منذ الصباح، جامداً كتمثال لا ينتظر منه تأدية أي مهام بشريّة، وحين صرت قريبة من أذنه كفاية، صحت بصوت عالٍ، كما بات حديثي التقليدي معه منذ صار سمعه ثقيلاً: «بابا، من فضلك ساعدني في اختيار الملابس التي تريد أن أحزمها لك».

وحين لم يجب، صحت بصوت أعلى: «أبي، أنا عاجزة عن معرفة ماذا أضع في حقيبتك».

ضرب أبي عصاه في الأرض، وصاح من دون أن ينظر إليّ: «لن أغادر بيتي، سابقى هنا أحرس قبرَي زوجتي وابني».

(*) الفصل الأوّل من رواية بالعنوان نفسه للكاتبة السوريّة ريمة راعي، حازت المرتبة الثانية في «جائزة سليماني العالميّة للأدب المقاوم» في دورتها الأولى (2021) عن فئة الرواية، وصدرت حديثاً عن «دار أسفار للثقافة والإعلام» في بيروت.

يوسف عبدلكي، «أم الشهيد» (فحم على ورق، 2015).

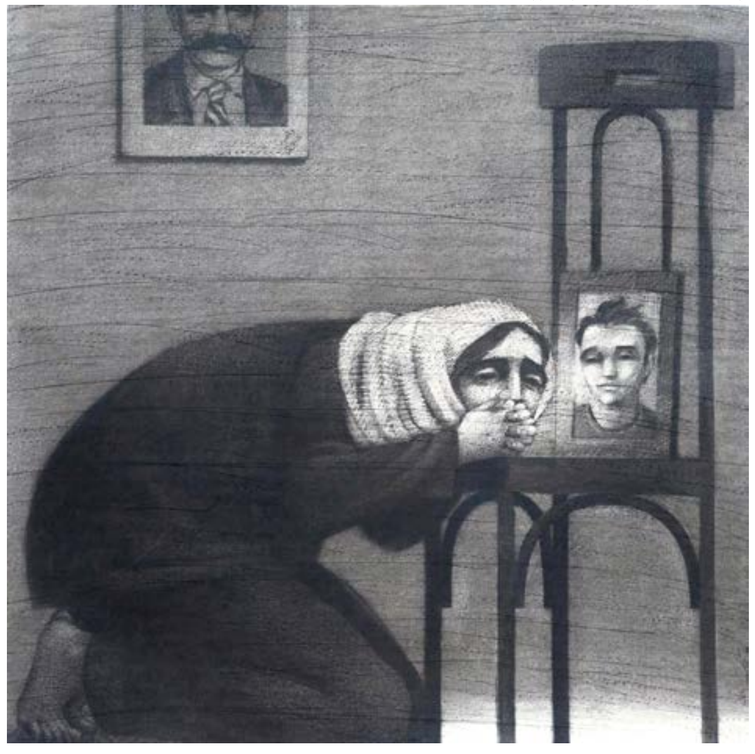

شعر

سيرك الحب (*)

عبد الإله الصالحي

1. حربُ المدن

إلى محمد أحداد

أفكّر دائماً في ذلك المقاتل الشَّرس
أيّا كان صفُّه
وكيفما كانت عقيدتُه.
كيف يتدبّر أمره بستّ رصاصات
وهو مُحاصَرٌ بجيشٍ منَ الأعداء؟
أفكّر في ذلك المُقاتل
وأحاولُ أن أتخيّلَ نفسي مكانه.
أحاول أن أفهم
كيف بفكرةٍ بسيطةٍ
أو حيلةٍ
تنقلبُ المعادلة فجأةً
وتجهّز على ارتالٍ منَ المهاجمين
وتحسم معركةً لم تسع إليها
أبداً.
أنا أيضاً محاصَرٌ بجيشٍ منَ الأعداء
وعندي ستُّ بيراتٍ
ستٌّ لا غير
والطقس باردٌ
ولا شيءَ يلوّح من وراء تلك الكثبان
في السّماء ينعق سربٌ منَ الغربان
وعلى الأرض يسيل بؤلٌ أصفر
تنبعث منه روائح بعض الأصدقاء

عيني لا ترمش
ويدي على الزّناد
وأشرب بيرةً بعد الأخرى
متمنّياً أن ينهار الأعداء
أو يعلن مَثَلاً عن هدنةٍ بإشراف
وفدٍ من ملائكةٍ يحرصون
على الهدوء
وراحة الله ليلة السّبت.

ستُّ رصاصاتٍ
ستُّ بيراتٍ
يدٌ في الجيب
وأخرى على الزّناد..

2. التحرر منَ الحب

إلى محمد بنميلود

ما أجملَ أن تتحرّرَ منَ الحبّ
وتجلسَ في حديقةٍ
وتشربَ بيرةً منَ دون تفكيرٍ
في مَن أحببت.
ما أجملَ أن تسلكَ طرقاً فرعيةً
تُفضي إلى حصنٍ مهملٍ على
الحدود
والحديقة تبقى حديقةً إلى الأبد.
ما أجملَ أن يرتاحَ قلبكَ
ويدقَّ بحيادٍ.

ما أجملَ أن تتفرّغَ عاماً كاملاً
للسماء
وتنشغلَ برجلٍ يعبرُ الشّارعَ
بتثاقلٍ وفي يده كتابٌ.
ما أجملَ أن ترى العدمَ بلا نظّاراتٍ
في هاتفك النقّال.

ما أجملَ أن تتحرّرَ
وتفكّرَ فقط
في جدّةٍ تحتضر في مصحّةٍ
بعيدةٍ
وقلبها يكاد ينفجر من شدّة
الخفقان.

ما أجملَ أن لا تركضَ وراء
الجمال
أن تمارسَ الجنسَ بلا إحساسٍ
أن تعيشَ كشجرةٍ بلا غايةٍ.

ما أجملَ أن تزدهرَ باغنيةٍ
بلا ماضٍ ولا تأثيرٍ.

أن تكونَ عبداً في العمل
ومجرّدَ محطّةٍ في رأس مسافرٍ
تائهٍ
وتنحازَ للباس من دون خلفيات.

وتلك الرّوايات الّتي لم تُكتب
وتلك القصائد الّتي تنهكُم عليك
وتلك القصّة الّتي ضاعت في
الخامسة صباحاً
وذلك الشاب الذي بكى خلسة في
القطار.

ما أجمل أن يعودَ المعنى إلى
اللّيل بلا عتاب
والشّكل يتصالح مع منتصف
النّهار
وأن ترى في المطبخ ملاكاً مبتدئاً
يغفر بلا حساب.

ما أجمل أن تستخفَّ بالحبّ
وتشربَ البيرة التّاسعة بلا
هدف.

3. ارى رجلاً صغيراً يزحف على بطنه في نفق الحبّ

إلى عبد الله بلعبّاس

الأعبءُ قرفي من نفسي
على ضوءِ الكمبيوتر الخافت.
يبدو أنّ ذبذبات الرّوح غيّرتْ
مسارها إلى غير رجعةٍ.
أنا على بعد آلاف الكيلومترات
من نفسي
اللّيلُ عذّرَ يائسٌ
ولا أصدقاء لي في النّهار.

أفكّر فيكِ يا أليس
وأنتِ تصارعينَ الموت على سرير
المستشفى.
بعد الحصّة الخامسة منَ العلاج
الكيماوي
ربحَ الورمُ الخبيث مزيداً منَ
المساحة في رأسكِ الصّغير.
ربحَ ما يكفي كي اتخلّى عنكِ
وأهرب.

كنتِ أجملَ منَ المرْضة الحسناء
وباقةُ الورد الأصفر الّتي
وضعتُها قرب مخدّتكِ
ذبلتْ قبل نهاية الزّيارة.

4. صديقي الكولونيل

إلى رشيد دفعة

رابط طويلاً في الصّحراء وعاث
فساداً في المدن ثلاث مرّات في
العام. زاوج بين الضّجر والبنادق
وتحدّث كعصفور مع الأغلام.
طار بلا أجنحةٍ وزحف في
الخطوط الأماميّة وعشرة أسرى
بين يديه.

إنّه صديقي الكولونيل الّذي لا
يُشقُّ له غبارٌ - نعم إنّها استعارةٌ
مكرورةٌ ولكن يا الله كم تناسبه -

قرأ سيلين وشرب كأساً مع
فيرلين
تأبّط شرّاً
اشتعلت في قلبه حرائق العبيد
ومناوشات العشّاق
وتفاوض مرّات كثيرة مع الشّقاء
بهاتف نقّال
وساق مرّة، حسب شهود عيان،
دبّابة معطوبة حتّى أقصى
نقطة في الوجدان.

أشعل النّار في البارات
وصلى في مساجد مهمَلة
وحرص على راحة قبائل تسرح
في رأسه السّكران.

نهب مئة ألف كيلومترٍ في العام
في طرق ترابية
ونَصبَ على الحبّ في الطّريق
السيّار.

تشاجر مع الأصدقاء وأشفقَ
على كثير منَ الأعداء. بنى حصناً
من عدم وغرس أشجاراً وتماثيل
وقصصاً مصوَّرة للأطفال. ومثّل
أيّ محاربٍ قديم بكى عاماً كاملاً
ثمّ رسم مُسبحاً وربّى خمس
قطط وصام ستّين يوماً حتّى
نبتت فكرٌ جديدةٌ في الميدان.

حتفهُ بين قدميه
وظلُّه يتبعه ككلب ضريرٍ
قلبه رابةٌ ترفرف في قمرٍ بعيدٍ.

إنّه صديقي الكولونيل..

5. فنّ الوصف

إلى رضا عدة

حقيبةٌ مفتوحة. مرآةٌ. جدرانٌ.
لوحةٌ فوق السّرير. السّرير.
ملاءةٌ. وسادتان. زربيةٌ. قميصٌ
مرميٌّ فوق الزّربية. سوتيانٌ.
ساعةُ يد. حذاءٌ رياضيٌّ. صندلٌ.
بقعة شمس فوق الرّفّ. علبة
مناديل. الخزانة. مقبض الخزانة.
جوارب. ومضةُ هاتفٍ نقّال.
ملقط شعر. كيلوتٌ. نظّاراتٌ
شمسيّةٌ. نافذةٌ. ستارة النّافذة.
علبة مارلبورو. قدّاحة. قشور
موزٍ في منفضة. الباب. مفتاح
الباب. السّقف. ثريا متدلّية منَ
السّقف..

إذا وصفتَ هذا الكم العاديّ منَ
الموجودات في غرفةٍ فاحفةٍ
بالحبّ من دونَ ذِكر العاشقَيْنِ
الملتحمَيْنِ في السّرير ولا
استعمال كلمة "حبّ". آنذاك قد
تكون كتبتَ قصيدةً عنِ الحبّ.

باريس/المغرب

(*) مقتطفات من ديوان بالعنوان نفسه صدر حديثاً عن «محترَف أوكسجين للنشر» أونتاريو/بودابست.

تاريخ

«ستالين الأسود» ضد سموم التأريخ الغربيّ

بعد خمس سنوات على غيابه المبكر، صدرت أخيراً طبعة إنكليزية كاملة مترجمة باحتراف من كتاب المفكّر الإيطالي دومينيكو لوسوردو الفاصل والإشكالي: «ستالين: تاريخ ونقد أسطورة سوداء». يغربل الكتاب السرديّة الغربيّة المشوهة المنحازة ضد جوزيف ستالين كما هندستها آلة الدعاية الغربيّة طوال قرن كامل، لترسمه شخصيّة شيطانيّة أسطوريّة. نص استثنائي بكل مقياس، يوفر للقارئ المعاصر تجربة نادرة في ارتياد متاهات أهرامات التاريخ المزوّر التي بنتها أجيال من المؤرخين الليبراليين والتروتسكيّين، ويمدّه بتفسير فلسفي متوازن لحياة الزعيم السوفياتي المعقدة، وقيادته، ومساهماته التاريخيّة في بناء الاشتراكية، وهزيمة الفاشية. كتاب – حدث للماركسيين، وصفعة قاصمة لمطلّقي الحكايات المرعبة التي تضمنتها عمليّة الشيطنة المؤدلجة ضد الشيوعيّة، وترياق شافٍ من سموم البروباغندا الغربيّة

سعيد محمّد

يُعد نشر الترجمة الإنكليزيّة الكاملة لكتاب المفكّر الإيطالي دومينيكو لوسوردو (1941 – 2018) «ستالين: تاريخ ونقد أسطورة سوداء» (ترجمة هنري هاكاماكي وسالفاتور إنجل دي ماورو ـ «دار إسكرا») في الولايات المتحدة، حدثاً رئيسياً في الدوائر الماركسيّة في العالم الناطق باللغة الإنكليزيّة، ومكسباً لكل مهتم بتاريخ القرن العشرين عموماً، وبالتجربة السوفياتيّة تحديداً. كان هذا النّص الرصين قد نشر أصلاً باللغة الإيطالية في عام 2008، وأراد مؤلفه دائماً توفيره للقراء بأبعد من فضاء جمهوره المحلّي، فترجم إلى الإسبانية والبرتغاليّة. لكنّ حصاراً غير معلن من قبل جهات عدّة، بمبنية وليبرالية ويسارية بمن فيها «دار فيرسو» ذات التوجهات التروتسكيّة التي نشرت ترجمات لكتب لوسوردو الأخرى، آخر ظهوره في ترجمة إنكليزية معتمدة لخمسة عشر عاماً، توفي خلالها لوسوردو نفسه. تابعت الموضوع شريكة عمره أوتي بريلمایر وابنه فيديريكو مع دار نشر ماركسيّة/ لينينيّة صغيرة في الولايات المتحدة (تحمل اسم «إسكرا») وواجهات متعددة في إنتاج أكثر من ألف كتاب خلال عقد ونصف عقد من تاريخ تأسيس الوكالة، للدفع بحجج أيديولوجية وجيوسياسيّة محددة بقصد بناء يسار «متوافق» مع الهيمنة الغربيّة، ووضع الإطارات الفكرية التي يمكن ليسار مماثل أن يعمل ضمنها. وهو أمر لا شكّ نجح نجاحاً باهراً، وما زالت امتداداته مستمرة إلى حد كبير من خلال التكاثر الذاتي، وإعادة التوظيف للتعامل مع الأهداف والأدوات المتغيرة.

«ستالين: تاريخ ونقد أسطورة سوداء» دراسة تقييميّة صارمة لمناهج الكتابة والبحث والتاريخ حول ستالين («الستالينية») وفق الاصطلاح التروتسكي التقليدي) بغرض تنقية المعرفة التاريخيّة من التلفيق، والمبالغات، وإخراج الأمور عن سياقاتها، والتشويه المتعمّد، والتزوير، وتقصّد نزع الإنسانيّة، والإيهام بالشرور والسوء وتقصّد رسم القائد السوفياتي كديكتاتور متوحش، وشخصيّة قاتمة، غريبة الأطوار، تتفنن في أساليب القهر، وتدير مذابح مليونية. وهذا اتجاه مستمر سارت عليه أجيال متتابعة من المؤرخين والكتاب الغربيين على تنوع تلوينات مرجعيتهم السياسيّة من اليمين الفاشيّ إلى اليسار التروتسكيّ، مروراً بالطبع بالكتلة الليبراليّة (الأهمّ).

بهذه الصيغة، فإن نصّ لوسوردو ليس سيرة ذاتية (بديلة) لستالين بالمفهوم المتعارف عليه، أو سرداً لأحداث مرحلة قيادته للاتحاد السوفياتي، أو تحليلاً لشخصيته ودوافعه، بقدر ما هو «تاريخ» و«نقد» و«تفكيك» لعمليّة شيطنة ستالين، وفق طريقة عمليّة، مستندة إلى بحث دقيق وموثق، يكسر تلك الحلقة المفرغة اللانهائيّة من تصنيع الأساطير السياسية وإعادة تصنيعها لخدمة أغراض الهيمنة.

لقد كان ستالين شخصية مركزيّة في تاريخ الحركة الشيوعية العالمية والنضال للتحرر من الهيمنة الغربيّة المستمرة على العالم منذ ما يقرب من خمسة قرون، وتستحق نظرياته كمفكّر، كما ممارساته كقائد سياسيّ، دراسة وتحليلاً معمقين، ليس من قبل المتخصصين والمؤرخين فحسب، ولكن أيضاً من قبل الماركسيين – دون الماركسويين المنتفعين من التجارة بالشعارات الماركسيّة –، وكل المعنيين بفلسفة بناء مجتمعات إنسانيّة أفضل. ولذلك من الجليّ أن دوافع «تسويد» صفحة ستالين الشخص مرتبطة عضوياً بالمشروع الغربيّ لمناهضة الشيوعيّة، ناهيك بافتقار كثيرين من العقلاء للشجاعة الأدبيّة للوقوف في وجه التيار الجارف للدعاية السلبيّة عن الرّجل وتجربته، وصعوبة الوصول إلى مادة متوازنة عنه بالنسبة إلى أغلبية ممن يعيشون في مناخات ثقافية تشكلها الإمبرياليات الغربيّة. ولذلك، فإن صياغة تقييم عادل لمجمل لتجربة الستالينية اليوم ليست بالقضيّة المهمّة فقط لناحية تحرير شخص ستالين نفسه من الأساطير، بل أيضاً لضرورة توفير مادة خام أقل تلوثاً في قراءة تجربة تأسيس أوّل دكتاتورية للبروليتاريا منذ غياب قائدها التاريخيّ لينين.

خارج الأطر الغربيّة الخانقة، فإن منجز ستالين – قبل كتبه – تتحدث عنه: لقد كان المحرّك الجبّار الذي قاد خلال عقود قليلة عمليّة تحويل الاتحاد السوفياتي من دولة متخلّفة وشبه إقطاعية إلى قوة صناعيّة عالمية متفوقة في مجالات عدة على الغرب، وفي عهده أنهى الاتحاد الأمية، وتخلّص من البطالة والدّعارة، ووفر لجميع المواطنين الرعاية الشاملة في الصحة والتعليم والإسكان والنقل والتقدميات الاجتماعيّة، ووضع حداً نهائياً لدورات الأزمة الاقتصادية والمجاعات الدوريّة التي ابتليت بها روسيا لقرون قبل الثورة البلشفية. وقد تحققت هذه الإنجازات في ظل ظروف العداء الإمبريالي المستمر، والحرب الأهلية، والمؤامرات التخريبية، ومخاطر الإبادة النوويّة. ولا ينبغي أن ننسى ولو وهلة أن ستالين قاد أيضاً المواجهة القاسية، كقائد سياسيّ وعسكريّ، ضدّ عدوان ألمانيا النازيّة، وأنقذ العالم – ولو موقتاً – من شرور الفاشيستيات الأوروبية.

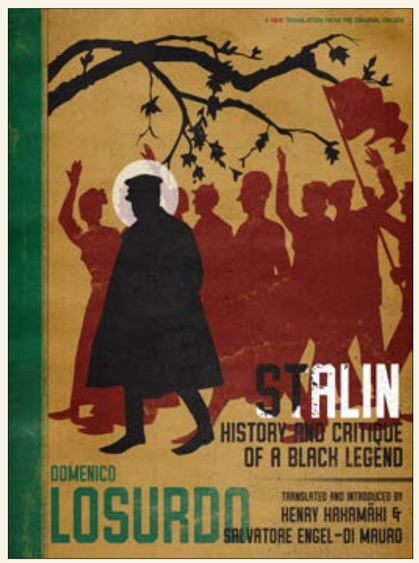

مشروع شيطنته في الغرب تبلور بعد ما يسمّى بـ «الخطاب السري»

بدأ التروتسكيون باكراً بإدانة «الستالينية»، على أن لوسوردو يرى أن مشروع شيطنة ستالين في الغرب تبلور بعد ما يسمى بـ «الخطاب السري» الذي ألقاه نيكيتا خروتشوف أمام المؤتمر الـ20 للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي في عام 1956، «حول عبادة الشخصية وعواقبها». ينطلق لوسوردو من تفكيك لمجمل ادعاءات خروتشوف في ذلك الخطاب «السريّ» لملاحقة العديد من التهم الموجهة إلى ستالين منذ ذلك الحين إلى وقتنا الراهن بداية القرن الحادي والعشرين، فيضع الأحداث في سياقاتها التاريخيّة والسياسيّة والاجتماعيّة ككل، كي يمكّن القارئ، في المحصلة، من التوصل إلى استنتاجات نقديّة متوازنة حول ما حدث بالفعل في الاتحاد السوفياتي تحت قيادة ستالين، وهي حتماً ستكون مختلفة تماماً عن الصورة المزيفة، المنحازة، المجترة، التي تقدمها ماكينة الدّعاية الغربيّة تقليدياً.

ويشير لوسوردو إلى أنّه بفضل توافر وثائق جديدة، وحرفيّة بعض الباحثين، فإنّ مادة الأسطورة السوداء عن ستالين التي رسمها تروتسكي بداية، وتبعه خروتشوف في خطابه السريّ، أصبحت بشكل متزايد أقرب إلى صورة هزليّة لا تتمتع بالمصداقيّة ولا تتوافر لها وثائق يعتد بها لتدعمها. ومع ذلك، فإن الإعلام الغربيّ الذي تسيطر عليه وتوجهه النخبة الأميركيّة ما زال يعتمد على هذه الترهات كحجر رحى في إنتاج البروباغندا ضد الماركسيّة وضد روسيا، وأداة أساس في إفساد اليسار، ومعجنته في شيوعية مهادنة للمشروع الغربيّ ومتماهية معه.

يعلمنا منهج لوسوردو في نصّ «ستالين» على أن استقراء السياقات السياسية والاجتماعيّة والاقتصاديّة للأحداث التاريخيّة أمر لا مفرّ منه إن رغب المرء في العمل لتفكيك الأيديولوجيات البرجوازية كمقدّمة لاستعادة مصداقية المشروع الشيوعي الثوري، وتجنب خيبات وماسي الماضي. في تقييمه للسياسات التي تبنتها القيادة السوفياتية في المراحل المختلفة ربطاً بالظروف الموضوعيّة والسياقات الكليّة كما في هذا الكتاب، يمنح المؤلف القارئ المعاصر فرصة نادرة لمعاقرة قراءة نقدية في عبور نموذج لما يعرض علينا من الخرّعبلات الغربيّة – التي تستهدف بث الخوف من التغيير – بوصفها «تاريخاً».

إن الخضوع الكسول لهذه السرديات التضليليّة المزورة إنما هو تطبيق عملي فرديّ لمعنى الاستسلام للهيمنة، وبدون قراءات مضادة على طريقة دومينيكو لوسوردو، فلن نتمكن، لا أفراداً ولا مجتمعات، من فهم الماضي، أو توقع المستقبل، وسنبقى كبشر ضحايا أوضاع قائمة نعتقد ـ بسبب مطلق الخداع ـ بأننا عاجزون عن تجاوزها.

رواية

باسم خندقجي: بحثاً عن فلسطين وتاريخها وهويتها

تغريد عبد العال

لم تكن مسألة البحث في التاريخ غائبةً في الرواية الفلسطينيّة، لأنها ربما تحفز البحث عن جذور ذلك الصراع الدائر حتى الآن. لكننا لا نستطيع القول إنّ رواية الأسير باسم خندقجي «قناع بلون السماء» (دار الآداب) هي رواية تاريخية، فهو يستخدم السرد المبني على أكثر من معمار روائي. ولذلك طرح أكثر من سؤال هام في صلب قضيتنا الوجودية مع احتلال استيطاني استعماري وإحلالي غاصب. القناع هنا ليس قناعاً يخفي الوجه فقط، بل هو قناع يخفي الهوية، كرمز لما تفعله الصهيونية من سردية تحاول إخفاء الحقيقة التاريخية وتشويهها. فالبطل هنا وهو نور الشهدي من المخيم، يحاول أن يستخدم قناع الصهيوني أور شابيرا لكي يذهب إلى القدس ويشارك في بعثة لتنقيب الآثار. وهناك سيزيل نور قناعه، حين يزيل التاريخ عن وجهه الحقيقي، لنرى فلسطين في حقيقتها. لكن لعبة نور هي جزء من نضاله الذي أراد به الوصول إلى مواجهة هذا العدو أمامه وعلى مرأى التاريخ الدامغ في الأرض.

القناع في الشعر والأدب، هو أسلوب شعري يتحدث فيه الكاتب أو الشاعر بشخصية مختلفة عن شخصيته. يقول الروائي إنّ القناع باللغة بالعبرية يُلفظ «مسخا»، فهو يشبه في لفظه ومعناه الرديف الإنكليزي «مأسك». والمسخ باللغة العربية يعني «مشوّه الملامح». فالملامح التي يحاول نور أن يقلدها بهدف الذهاب إلى البعثة التاريخية والعثور على روايته عن مريم المجدلية التي يريد أن يكتبها، لكنها تتضح أخيراً حين يزيل ذلك القناع أمام سماء الفلسطينيّة من حيفا.

تاخذنا هذه الرواية لتذكر «عائد إلى حيفا» وثنائية خلدون ودوف، ولكن في رواية خندقجي، إن خيار المواجهة هو الخيار الوحيد، الذي يتوّج بالبحث والتنقيب وليس الحوار. وفي النهاية، فإنّ نور واع لما يحدث، ويريد لتلك الهوية التي وجدها في المعطف للإسرائيلي أور شابيرا، لا أن تكون معبراً للذهاب إلى القدس، بل مواجهة لأور الذي يحاول أن يقنعه بمشروعيته بالهولوكوست والمحرقة بينما يأتي نور من المخيم.

المخيم حاضر في الرواية، وهو الشاهد على كل تلك الأقنعة، ولا سيما أنه المكان الذي يقف بوجه أور. إنّه المكان الحقيقي الشاهد على النكبة. في طريق نور مع البعثة بحثاً عن ذلك الكنز المدفون، يقف الغيتو الفلسطيني كحقيقة في مواجهة الغيتو الصهيوني.

يحاور نور مراد صديقه الأسير، على هامش حواره مع نفسه، كأنه هنا يحاور كل جغرافيا فلسطين، المخيم، السجن، القدس، لتكتمل خريطة ذلك الصراع بين أور ونور. صراع تصل جذوره إلى التاريخ وإلى مريم المجدلية موضوع رواية نور. ربما اللافت أيضاً في الرواية أنّ الأحداث لا تجري في المخيم، ولا تحدث فيها، لكنه موجود كشاهد، وكأننا في تلك الرحلة في البحث عن الآثار، نمر فيه. إنّه ليس فقط المكان الذي ولد فيه نور، بل المكان الذي ظل حافظاً للذاكرة ومخزناً لكل ما مرّ من ويلات ونكبات.

لا تدخل الرواية إلى الألم الذي حدث بشكل مباشر، بل تتقصاه إلى أبعد، إلى تلك المواجهة مع العدو، الذي يبدو هنا ككقناع. قناع مزيّف لكل الحقائق، والروايات. في مشروع باسم خندقجي، ذهاب نحو ذلك العمق في الصراع مع العدو. إنّه ـ كما يقول بلغته الروائية الحديثة ـ ذلك الاستدعاء للتاريخ لأنه ربما سيجعلنا نزيل القناع كما فعلت سماء.

في زمن التطبيع، يجعلنا خندقجي، نتتبع خيوط السرد، لنعلم أن مهمته الروائية ليس أن نرى العدو آخر، فهو ليس كذلك كما يحصل الآن في الفن والمسلسلات وبعض الروايات. إنه هنا مجرد قناع للدخول إلى عمق الصراع ودحضه واكتشاف الحقيقة التي أظهرها الحب وحده، عندما واجه سماء بحقيقته. الحب هو من سيزيل ذلك القناع، الحب للحبيبة الفلسطينية وللأرض وللمخيم ولمريم المجدلية، فتلك اللحظة حين يعرف من هو، سيدرك ويواجه سماء بأنه نور. وهنا نرى علاقة الحب بالهوية وبالأرض وبالحقيقة.

هكذا يواصل خندقجي مشروعه الروائي المبني أساساً على البحث والتاريخ، وكان قد أصدر أربع روايات هي «مسك الكفاية»، و«خسوف بدر الدين»، و«نرجس العزلة». وكان الروائي الأسير قد نقل من سجن نفحة الإسرائيلي جنوب فلسطين المحتلة بعد زيارة وزير «الأمن» الإسرائيلي المجرم بن غفير وطلبه تشديد الإجراءات ضد الأسرى.

في هذه الرواية، يبدو أنّ المؤلف اقترب من قلب فكرته القائمة على سرد حديث لا يهم فيه سرد القصص فقط، بل الاهتمام بالعمارة الروائية القائمة على أكثر من رواية. فالرواية لا تتقصى بداية وخاتمة، ولا تمشي بشكل أفقي، إنما هي تفعل كمن ينقب عن الآثار، تمشي بشكل عمودي لتبحث عن عمق ما أو غشاوة تزيل عنها الغبار. كل الشخصيات في النهاية تلتقي بمن تواجهه، كأن المواجهة هي الحل في النهاية، وخصوصاً حين تواجه سماء أيالا الإسرائيلية. إنها مواجهة على مرأى التاريخ ومرأى الحقيقة ومرأى المخيم، ليظهر الجرح المدفون في الداخل وهو النكبة. كأنما هناك روايتان داخل الرواية: رواية البحث عن مريم المجدلية ورواية البحث عن فلسطين وتاريخها والهوية الحقيقية. لا تلك التي وجدها في معطف قديم، والتي سيمزقها في النهاية، ليجد هويته التي سيدافع فيها أيضاً عن حبه، فيقول في مقطع أخير: «ينزع قلادة نجمة داوود من عنقه، يلقيها بعيداً نحو السهل المحاذي للرصيف، ينتشل بطاقة الهوية المزورة من جيبه، هوية أور شابيرا، يستعرضها أمام ناظري سماء، ثم يمزقها بعنف ليلحقها بالقلادة».

المخيم هو الشاهد على كل تلك الأقنعة

إبراهيم البجلاتي قارئاً عيون الكلاب

محمد علي

العلاقة بين البشر والكلاب ممتدّة منذ أن تمكّن الإنسان قديماً من استئناسها، فأصبحت الصديقَ الأقرب له من بين كل الكائنات، وأكثر الحيوانات المدجّنة وفاءً لصاحبها، إلا أن بطل رواية «كلب المعمل» (دار المحروسة ـ 2023) للجرّاح والروائي والشاعر المصري إبراهيم البجلاتي كانت له حكاية خاصة مع الكلاب. يدخلنا البجلاتي إلى عالمه لنرى كيف تحولت علاقته بالكلاب من الخوف منها إلى الحزن عليها، حتى نصل مع نهاية الرواية إلى سبب هذا التحول الكبير، واكتشاف البطل وحدة المصير، وتشابه عوالم الكلاب مع عوالم البشر: «وكأنني قلت له: اصمد معي يا صديقي فلا أحد يدري فمَن مِنّا في داخل القفص».

يأخذنا البطل/ الراوي، وهو طبيب شاب، معه في رحلة إلى قلب المنظومة الصحية المصرية، لنتعرف معه إلى طريقة إدارتها. ينجح في رسم تناقضات هذا العالم وأبطاله، ونكتشف معه الخلل الجوهري في منظومة الطب والبحث العلمي. يحدث كل هذا في إطار محاولات الطبيب ابتكار عملية جراحية جديدة لصنع مثانة بديلة، لعلاج الأشخاص الذي يعانون من تورم سرطاني في هذه المنطقة من جسد الإنسان. لكنه يتوجب عليه ـ بحكم القواعد العلمية ـ أن يُجرّب الطريقة الجديدة على الكلاب أولاً، للتأكد من النتائج وقابلية التنفيذ في البشر. سريعاً ما يتركه بعدما تاه في المقدمة والتصنيف، منتقداً الخلط بين العلمي والشعبي. يذهب إلى «كتاب الحيوان» للجاحظ، ويسترسل البطل/ الراوي في ذكر مسيرة الكلاب وبداية علاقتها. ولأن الأسئلة كثيرة في ذهن الراوي، يلجأ إلى كتاب كونراد لورنتس، عن عالم الحيوان، (وهو الكتاب الذي ترجمه البجلاتي نفسه عن الفرنسية ونشره «مركز المحروسة» بعنوان «والتقى الإنسان بالكلب»)، ويؤرخ للكلب كاول حيوان مستأنس، ورحلته من الجرّ والحمل والنقل والمشاركة في الصيد، وصولاً إلى الصداقة مع الإنسان: «لم تكن طاعة الكلب سوى تعبير بريء عن عجزه ومحبته، لكنها كانت محبة بلا خطة، أوقفت دماغه عن العمل، فصار دماغه أصغر، وصار تابعاً الصق، وصار خاضعاً أكثر، ثم عبداً جوّعوه، وهو الذي يسحب لهم الطرائد، فإذا جاعوا هم وعزّ الصيد ذبحوه وأكلوه وصنعوا من فرائه مفزراً ونعالاً». تدور الأحداث جلها في نهايات ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، في أعقاب تفكك الاتحاد السوفياتي وانهيار القوى الشرقية العظمى، وما نتج عنه من خلل في ميزان القوى العالمي، وانعكاس ذلك على المجتمعات العربية، بسطوة الأفكار الرأسمالية، وثقافة الاستهلاك، وتحول البشر أنفسهم إلى مجرد آلة في ماكينة الرأسمالية العالمية، وصعود الأصولية الدينية في عهد أنور السادات، راصداً التحول الذي حدث على البشر والأمكنة: «ما زالت شوارع توريل تحتفظ ببعض من جمالها القديم، لكن وصلتها أكوام الزبالة مثل بقية الشوارع، وتكاثرت فيها الحفر والخرائب المعروضة للبيع. كانت هناك فيلات وحدائق تعشق المشي بقربها. كان هنا بشر مختلفون كانهم جالية من عرق مختلف، وكأنهم كلهم رحلوا، وكان بنا رغبة في طمس وجودهم ومحو ما تبقى من أثر لهم».

بطل الرواية هنا هو السارد يتحدث بضمير المتكلم، وانعكاس ذلك خاصة جداً، لكنها في الحقيقة تجربة الكثير ممن تعاملوا كأطباء أو مرضى مع المنظومة الصحية المصرية، كاشفاً عن واقع مؤلم يختبئ خلف البالطو الأبيض. إلا أن شخصية «الباشا» مدير المركز الطبي الجامعي المتخصص في أمراض الكلى، تبدو طاغية على الراوي، إذ يملك هذا الرجل القدرة على فعل كل شيء بحياة من حوله. مدير صارم يتحكم بالأطبّاء والعمال والمرضى، يشبه شخصية «أبو شنب» العامل المسؤول عن توفير الكلاب في المركز، فهو أيضاً يتحكم بالكلاب التي يربطها ويجرها ويحبسها ويضربها ويطعمها، وهو من يشهد لحظات وفاتها أو من ينفذ فيها القتل الرحيم.

تدور الأحداث في أعقاب تفكك الاتحاد السوفياتي

نسافر مع الراوي من المنصورة في دلتا مصر إلى جنوب البلاد في الصعيد ثم القاهرة قبل أن يستعد للسفر إلى فرنسا. بطل يعاني الكثير من القلق والتوتر والبحث عن الذات، والخوف أيضاً، هذا الخوف الذي يجمعه مع الكلاب. يموت الكلب الأخير الذي يجري عليه الطبيب تجاربه العلمية، فتفشل تجربته لكنه يكتشف أن «الفشل ليس سيئاً تماماً بل يمكن أن يكون حلاً من الحلول (..) لأن موت الكلب واحد لا ينهي على بقية الكلاب:

نجحت تجاربنا، والكلب يا أستاذنا العزيز مات، لكن سيظل في الدنيا كلاب، حتى القيامة والحساب».

ينظر الطبيب إلى عيون الكلب فيغرق من الحزن الذي وجده في عينيه: «خرجت من المعمل عائداً إلى المستشفى العام. لماذا تمتلئ عيناه بكل هذا الحزن؟ وهل تحزن الكلاب أصلاً؟ وإذا كانت عيناه حزينتين بالفعل، فما سر هذا الحزن؟ هل تشعر الكلاب بالظلم؟ أم أنني أتوهم؟ هل حزنه هذا هو السبب في صمته العميق الدائم؟ كان بإمكاني أن ألمح حزناً في عيون الكلاب كلها. الشرس منها والهادئ والقبيح. كلاب المعمل كلها لها عيون حزينة. كنت كمن وقع على كشف ما، كشف غامض، لا بد من فك غموضه».

الكثير ممن تعاملوا كأطباء أو مرضى مع المنظومة الصحية المصرية، كاشفاً عن واقع مؤلم يختبئ خلف البالطو الأبيض. إلا أن شخصية «الباشا» مدير المركز الطبي الجامعي المتخصص في أمراض الكلى، تبدو طاغية على الراوي، إذ يملك هذا الرجل القدرة على فعل كل شيء بحياة من حوله. مدير صارم يتحكم بالأطبّاء والعمال والمرضى، يشبه شخصية «أبو شنب» العامل المسؤول عن توفير الكلاب في المركز، فهو أيضاً يتحكم بالكلاب التي يربطها ويجرها ويحبسها ويضربها ويطعمها، وهو من يشهد لحظات وفاتها أو من ينفذ فيها القتل الرحيم.

نسافر مع الراوي من المنصورة في دلتا مصر إلى جنوب البلاد في الصعيد ثم القاهرة قبل أن يستعد للسفر إلى فرنسا. بطل يعاني الكثير من القلق والتوتر والبحث عن الذات، والخوف أيضاً، هذا الخوف الذي يجمعه مع الكلاب. يموت الكلب الأخير الذي يجري عليه الطبيب تجاربه العلمية، فتفشل تجربته لكنه يكتشف أن «الفشل ليس سيئاً تماماً بل يمكن أن يكون حلاً من الحلول (..) لأن موت الكلب واحد لا ينهي على بقية الكلاب:

نجحت تجاربنا، والكلب يا أستاذنا العزيز مات، لكن سيظل في الدنيا كلاب، حتى القيامة والحساب».

ينظر الطبيب إلى عيون الكلب فيغرق من الحزن الذي وجده في عينيه: «خرجت من المعمل عائداً إلى المستشفى العام. لماذا تمتلئ عيناه بكل هذا الحزن؟ وهل تحزن الكلاب أصلاً؟ وإذا كانت عيناه حزينتين بالفعل، فما سر هذا الحزن؟ هل تشعر الكلاب بالظلم؟ أم أنني أتوهم؟ هل حزنه هذا هو السبب في صمته العميق الدائم؟ كان بإمكاني أن ألمح حزناً في عيون الكلاب كلها. الشرس منها والهادئ والقبيح. كلاب المعمل كلها لها عيون حزينة. كنت كمن وقع على كشف ما، كشف غامض، لا بد من فك غموضه».

سجل الشعر العربي

نستهلّ زاوية «سجل الشعر العربي» بإحدى أجمل شطحات «رسائل الوحشة» (دار الفارابي ــ 1979). المجموعة الشعرية الأولى التي كرّست الراحل محمد عبد الله (1946- 2016) شاعراً يقول تجربته الخاصة في الشغب والحرية لجيل جديد من الشعراء أفرد جزءاً من حريته للقمع والمنع، وأطلق جزأها الآخر متسلّلاً بين ركام عظمة ومجد السابقين وبين هزيمتهم. في «شطح» التي غنّاها الفنان مرسيل خليفة، تختلط الرقة في لغة محمد عبد الله أو «دون كيشوت» الشعر اللبناني الحديث بـ «رغبة الإفساد وتعلن رغم مراسيم الاحترام والانحناء، رغبة في التمرد باتت لا تحتمل التأجيل». تكمن ريادة القصيدة كما المجموعة على خريطة الشعر العربي الحديث في ما أوضحه محمد العبد الله نفسه في مقدمتها نيابة عن جيل الشعراء القلق ولا سيما من عرفوا بشعراء الجنوب أواخر سبعينيات القرن الماضي، ممن جمعتهم قضايا الوطن والحرب ليتلمّس كلّ منهم طريقه الخاص لينفرد بتجربته في ما بعد: «إننا نبتكر حرّيتنا قيداً قيداً وفضاء فضاء بينما المقص يتدخّل بين الشهيق والزفير وإننا مضطرون الآن لحريتنا كلّها. إننا على عتبة الشعر».

محمد العبد الله: شطح

اندريا ديفيا نونو ــ «حبّ» (أكريليك على خشب ـ 2020)

اتركي أهلَكِ وأرضَكِ وملابسَكِ القديمة،
واتبعيني
انظريني أبني لموتنا الحامضِ الصغيرِ بيتاً صغيراً
وقولي: هذا سيّدي الصغير
الذي ينبغي أن أتعرّى له كلّ ليلة
قبّلي يديَّ المضطربتين وراء آخر ثيابكْ
وقولي بصوتك المصقول بالعبادةِ والانكسار المغتبطْ
خُذْ جسدي العاريْ
يا امرأة الجسد الذي يتعاقب على الغزوْ
هذا أنا بعد الآهة المتقطعة الطالعة من بئر الصدرْ
حاضرٌ أبداً للنظر الطويل إلى عينيكِ
افتحيهما على مهل ومدّي جسور النوم الطويل
إنني أتصيّد النعاسْ
إذا ملتُ، مِيلي معي
خبزنا واحدٌ آخر الليل
آخر الليل حين يودّعُنا آخر الأصدقاء
آخر الليل حين نلملم أشياءنا
آخر الليل حين يسدّ منافذه الليل
آخر الليل حين ينتظر الليل شيئاً
وثدياك يكتملان في آخر الليل.

إن همساً يعود إلى ألف عامٍ
مضى سيجعلك خبز قلبي
ويحشرني الوقتُ فلا تسأليني
على مهل أنحلّ ضوءاً ويكشفني الضوءُ
خوضي بعينيّ حتى دمي
أقيمي عمارات زهوك بين عظامي
كُلي وجعي حَبّةً حبةً
اسأليني
- أتأخذني سيدي؟
- إنني أصطفيكِ

■■■

كفّاكِ قبل الفضّة بقليل
وقلتُ: يناسبك من المعاطف الورديْ
وعيناك جميلتان كأنّهما ضدّ عينيّ الملكة.

■■■

وقلتُ يناسبكِ من الأشجار الكرزْ
ولم تكن تعرفني أشجار الكرزْ
بل كانت حبّات الكرز الحمراء
تحت الندى الصيفيّ
تتلألأ ولا تبالي
وكانت الحديقة أيضاً تدخل تحت قدميكِ ولا تبالي
وكنتُ.. أدوسُ العشبَ ولا يبالي
وكنتُ أبالي كثيراً
وكان هذا فوق الاحتمالْ
وقلتُ: أحتمِلُه

■■■

وكان الدرجُ طويلاً
كان الدرَج درجةً درجةً
وقلت: أصعدُ الدرَجْ
يداك عميقتان كغصنين في الفضاءْ
وقلت: أعطيك يديْ
وقلتُ: أسمّيك الوردةْ. وأجعلك زرقاءْ
ولم تكوني الوردةْ. ولم تكوني زرقاءْ
ولم أسمّكِ، ولم أقُل شيئاً

■■■

يناسبكِ من المعاطف الأزرق
ويناسبني التلويح البعيدْ
يا ذاهبة الزرقة
فراغ الفضاء هو فراغ اللونْ
ولم أكن أتبعكِ
بل كنت تبتعدينْ
ليس عن الصخر ولا عن الماء ولا في مسافات الزبَدْ
ولا نحو ولا في اتجاه
ولم أكن أتبعكِ
بل كنتِ تدخلين في الاحتمالْ
وأدخلُ في الخسارة والنقصانْ.

■■■

أصابعكِ البدءْ
أصابعكِ لغةٌ كاملة ولغة كاملةٌ ضدها
وأصابعكِ وقتٌ مهدور في المصافحة والتلويح والخواتم والكتابةِ
وقضم الأظافرْ
وأصابعكِ وقتٌ ضدّ الوقت
أصابعكِ في فمي، إصبعاً إصبعاً. تحت أسناني
وأصابعكِ بدءٌ محاصر بالنوايا الطارئة والتيّار المفاجئ
ولم يكن جسدك بحراً لكي أسبح. ولا أرضاً لكي ازرع. ولا فاكهة لكي آكُل.
ولا ماءً لكي أشرب. ولا سريراً لكي أنام.
ولا إلهاً لكي أصلّي.
يناسب جسدكِ في الخطورة السمّ، وفي الحلاوة
الإجاص، وفي الحرارة الرمل، وفي التشهّي النوم، وفي المسالمة
الثلجُ في السهول الواسعة
ويناسبني الندى آخر الليل وعبور الأحصنة البطيئة
أن انهض طازجاً في عالمٍ طازجْ
هكذا تكون الدروب مملكةً مهجورة. وأكون
جاهزاً لاستلام سلطاتي.
هكذا يكون الصمت مسموعاً...
وكذلك الخطوات!

■■■

طلع ذراعاكِ من الليل ولم تعرفيني
أقمتُ المسافة أمامكِ وسألْت:
هل أنتِ الوردة؟
أطلقتِ حولي قابليّة العجين
وأخرجتِ من أكمام قميصك حقول الزهرْ
ورقصتِ أشياء ممنوعةْ ومنعت الأشياءْ وتوقفت
...ثم انتشرت كحقول القمحْ!
شعرُكِ؟ يا مضيعة الوقت!
تركضين في القمح على القمح
بين سنابل القمحْ
وتفتحين الممرّاتْ
تنهضين على شفير زمانٍ غائبْ
تمشين في ثلج الذاكرة
وتجرحين مساحة الثلجْ
قمحٌ على ثلجْ. ثلجٌ على قمحْ
تطبقين ذراعيك على شيء ما
وأنقطع دون ذراعيك كخيطٍ طويل. كبَكرةٍ مكرورة.
تتنفسين المدى
وأتنفس الوحشة وفوات الأوانْ
وأطعن في الهواءْ
أينما تقعين تقيمين الأسوارْ
وحيثما تكونين تتكاثف حقولكِ
يا ملكة!

■■■

وتشبهين نفسك كثيراً
تشبهين نفسكِ حتى أرتعشْ
ولا تقبلين التكاثر. ولا تقبلين التوالُدْ
وتوهّم قطفكِ أشدّ فتكاً من زلزلة
وتوهّم خسارتكِ أشدّ هولاً من قيامة
تحرقين وتحترقين
فحمٌ على فحمْ
وقال القلب:
لزمن يشتعل...أعددتُ الفحمْ
للوردة وما بعدها أعددتُ الوقت
وكان القلب جارحاً متلألئاً
كقطعة من الألماس الأزرق.

Samedi 2 Septembre 2023 no77
السبت 2 أيلول 2023 العدد 77

القوس

www.alqaous.com

8 صفحات

ملحق أسبوعي مخصّص للعدل والإنصاف يصدر مع الأخبار كل سبت

كيف حُكِمَ على لبناني زوراً 155 سنة سجناً؟ [2]

اتفاق مسبق مع شاهد الادّعاء الرئيسي [3-2]

تقدّم طفيف في قضية الإمام الصدر

45 سنة من الانتظار

[5 - 4]

(هيثم الموسوي)

قضية

اتفاق مسبق مع شاهد الادّعاء الرئيسي

كيف حُكِمَ على لبناني زوراً 155 سنة سجناً؟ [3/2]

نستكمل عرض قضية المواطن اللبناني محمد حمود الذي اخلت السلطات الاميركية سبيله بعد قضائه 23 سنة في السجن. وكان حمود قد اعتُقل عام 2000 وحُكم عليه عام 2002 بتمويل «حزب الله» المصنّف أميركياً «منظمة إرهابية» من خلال تجارة غير مشروعة في ولاية كارولاينا الشمالية. وقد استندت المحكمة إلى قرائن اقل ما يقال فيها، قياساً لمعايير القوة الثبوتية، انها تحتمل الشكّ. فسعى المدّعي العام، اثناء جلسات المحاكمة إلى التاثير الوجداني والوطني على هيئة المحلّفين، الذين يصدر عنهم الحكم، إذ التامت تلك الجلسات مباشرة بعد هجمات 11 ايلول 2001 الارهابية. علماً ان قضية الولايات المتحدة ضد حمود كانت الأولى قضائياً في ملف «تمويل الإرهاب» في المحاكم الاميركية

(خاص الفوس)

عمر نشابة

تستدعي قضية حمود اهتماماً خاصاً، إذ إن السابقة في اعتماد قرائن تفتقد للقيمة الثبوتية والاستناد إليها لإدانة أي شخص هي ظلم واعتداء على أبسط معايير العدالة والإنصاف، والأمر قد يتكرر في سياق حجة «الحرب على الإرهاب» المزعومة وقد احترفت السلطات الأميركية انتهاجها لتصفية حسابات مع كل من تعاديهم.

في القسم الأول من هذا الملف بدأنا بشرح كيف سعى المدّعي العام إلى إقناع المحكمة بمزاعمه الكاذبة بأن حمود هو قائد خلية لـ«حزب الله» في الولايات المتحدة من خلال إفادات شاهد «متلاعب وكاذب» (كما وصفه القاضي روجر غريغوري) يُدعى سعيد حرب، ومن خلال اختلاق مؤامرات وإصدار أحكام مسبقة.

نستكمل الشرح في النص الآتي. ونشير بدايةً إلى تعرّض حقوق محمد حمود للانتهاك أمام المحاكم الأميركية من خلال:

1- سلوك النيابة العامة المخالف للقانون والأصول.
2- الأداء الضعيف وغير الفعّال للمحامي أثناء المحاكمة.
3- الأخطاء القانونية التي ارتكبتها المحكمة الابتدائية.

ستدعى المدّعي العام الأميركي كينيث بيل شاهداً لبنانياً يُدعى هيثم نشار (يُعرف باسم «سام») الذي كان موقوفاً في قضية جنائية في سانت لويس، واستند إلى مزاعمه لإقناع المحكمة بأن محمد حمّود الموقوف في قضية جرائم مالية، علاقة بـ«حزب الله» وشبكة لتمويل الحزب من داخل الولايات المتحدة الأميركية.

وتبيّن أن نشار أدلى بشهادة كاذبة ضد حمود في إطار صفقة كان قد عقدها مع المدّعي العام تقضي بتخفيف الحكم بحقّه في القضية التي يحاكم بشأنها في سانت لويس. وقد أخلى سبيل نشار عام 2007 وتوارى عن الأنظار.

نفى نشار أمام المحكمة وجود صفقة وشهد زوراً بأن «الاتفاق» بينه وبين المدّعي العام لم يتطلب منه أو يحفّزه على التعاون من خلال تقديم شهادة كاذبة ضد حمود. وبوقاحة لافتة قال نشار إنه كان يساعد الحكومة الأميركية دون مقابل. علماً أن المحققين لدى وكالات إنفاذ القانون الأميركية، الذين حققوا مع نشار قبل تقديم شهادته في المحكمة، كانوا على يقين بأنه كان يدلي بشهادة كاذبة.

> سعى المدّعي العام خلال جلسات المحاكمة إلى التكتم على الصفقة التي تمّت مع شاهد الزور وذلك بهدف تعزيز مصداقيته أمام هيئة المحلّفين. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مقارنة نوعية الأسئلة التي طُرحت من قبل المدّعي العام على الشاهد سعيد حرب وما جرى خلال استجواب الشاهد هيثم نشار، إذ إن إصرار المدّعي العام على إنكار نشار لأي اتفاق يقضي بتقديم معلومات كاذبة عن حمود بدا مستغرباً. وأعطى ذلك انطباعاً بأنه كان بحاجة إلى التشديد على ذلك وقد حوّل مضمون السؤال من سؤال «مفتوح» (open ended question) إلى سؤال موجّه يتضمّن الإجابة ويحمل فقط التأكيد أو النفي.
>
> إذ سأل المدّعي العام الشاهد سعيد حرب «ما الذي يتطلب منك للموافقة على الشهادة؟»، بينما سأل نشار «هل أنت مطالب بالشهادة؟».

وعد المدّعي العام نشار بالحرية وعدم ترحيله وبمنحه تأشيرة للبقاء في الولايات المتحدة

وجاءت تفاصيل الاستجواب أمام المحكمة على النحو الآتي:

المدّعي العام: «هل أبرمت اتفاقية مع المدّعين العامين في سانت لويس؟ هل لديك اتفاق مكتوب مع المدّعين العامين أم لا؟».

هيثم نشار: «نعم فعلت».

المدّعي العام: «وكجزء من هذا الاتفاق، ما المطلوب منك فعله؟».

نشار: «أنا آسف؟».

المدّعي العام: «بالنسبة إلى الجزء الخاص بك من الاتفاق، ما هو المتوقع منك؟».

نشار: «الجزء المتفق عليه ماذا - لم أفهم هذا السؤال».

المدّعي العام: «اسمحوا لي أن أكون أكثر وضوحاً حول هذا الموضوع. هل أنت مطالب بالشهادة إذا دعيت لذلك؟».

نشار: «لا - لا».

المدّعي العام: «إذاً فهذا [شرط الإدلاء بالشهادة] ليس شرطاً في الاتفاقية الخاصة بك».

نشار: «لا سيدي».

المدّعي العام: «ولكنك تفعل ذلك على أي حال».

نشار: «نعم».

المدّعي العام: «لماذا؟».

نشار: «الطلبك».

المدّعي العام: «لأنني سألت؟».

نشار: «لقد سألت متى لدينا - لقد اتصلت لتحديد موعد وجئت. قلت إذا كنت أعرف شيئاً عن هذه الحقائق، فأخبرني بما لديك من أسئلة عن الإخوة حمود وغيرهم. أجبت على السؤال. وسألتني إذا كنت ساحضر إلى المحكمة. قلت نعم».

المدّعي العام: «الآن، هل تأمل أن شهادتك اليوم ستساعد بطريقة ما قضيتك في سانت لويس؟».

نشار: «لا أعتقد أنها ستفعل أي شيء، لا أعتقد أنها ستفعل أي شيء، لا أعتقد أنها ستساعد. سيكون الأمر رائعاً لكنني لا أعتمد على ذلك بصراحة».

المدّعي العام: «هل قدّم لك أي شخص من مكتب المدّعي العام الأميركي في سانت لويس أو أي شخص هنا في شارلوت أي وعود أو اقترح عليك».

نشار: «هاتان قضيتان مختلفتان تماماً. لا علاقة لذلك ببعضنا هنا».

المدّعي العام: «كل ما أحاول الوصول إليه هو معرفة ما إذا كان ما تفعله اليوم هو أن شخصاً ما قد وعدك أو جعلك تعتقد أنك ستحظى بمعاملة أفضل في سانت لويس بسبب إدلائك بشهادتك هنا؟».

نشار: «لا سيدي».

المدّعي العام: «لم يفعل أحد ذلك؟».

نشار: «لا».

حصل وكيل محمد حمود القانوني عام 2012 على نسخة من ملف نشار الذي تضمّن الاتفاق الذي عقده مع المدّعي العام. يلزم الاتفاق نشار بـ«التعاون» مع حكومة الولايات المتحدة. ولا شأن أن عدم تحديد حدود «التعاون» وشكله في نص الاتفاق يتيح للمدّعي العام بأن يفسّره للشاهد شفهياً بأشكال مختلفة.

وكان المدّعي العام في قضية حمود، كينيث بيل، قد أثنى على «تعاون» نشار. إضافة إلى حصول نشار، وهو مواطن لبناني، على تأشيرة للبقاء في الولايات المتحدة بعد إخلاء سبيله.

اختراع 70 الف دولار

شهد نشار زوراً بأن شخصاً يُدعى عصام كان من زبائن حمود. وأفاد بأنه كان قد أعطى مبلغاً من المال لعصام على سبيل الدَّين، لكن بدل ردّه «تبرّع عصام بالمال لحمود، ليرسلها بدوره إلى حزب الله». كما زعم نشار أن الأموال التي جمعها حمود لصالح الحزب بلغت ما بين 60 و70 الف دولار. لكن لا يمكن أن تكون تلك المزاعم صحيحة، إذ إن أجهزة التحقيق والاستخبارات ومكتب التحقيقات الفيدرالية قاموا بمراقبة واسعة النطاق ومفصّلة لأنشطة حمود. وقد شملت المراقبة والرصد المكالمات الهاتفية وسجلّات الأرقام السرّية وكاميرات المراقبة والعملاء. ولم يعثروا على أي دليل أو قرينة تؤكد صحة ادعاءات «الشاهد» هيثم نشار. وكانت المحكمة قد استمعت إلى إفادات ستة شهود عرضهم الدفاع ولم يشر أي منهم إلى صحة ما جاء على لسان نشار.

شاهدة لم تصدّقها المحكمة

كان شاهد الزور هيثم نشار في علاقة عاطفية مع سيدة أميركية تُدعى تيريزا فينوكيو. أفادت الأخيرة أمام المحكمة بأنها كانت قد أجرت محادثة مع نشار في أحد فنادق شارلوت، إذ ذكر أنه كذّب بشأن تورط محمد حمود لأن:

(1) حمود «شخص يمكن التخلص منه».

(2) أراد نشار «القضاء» على حمود كمنافس في تهريب البضائع (السجائر) في الولايات المتحدة الأميركية.

(3) كان يسعى إلى تخفيض مدة عقوبته في السجن.

كما شهدت فينوكيو أن صهر هيثم نشار كان يعلم أنه كذّب وكان «منزعجاً جداً منه» بسبب ذلك.

جرى استجواب فينوكيو أمام المحكمة لأيام بشأن ضلوعها في جرائم مالية وتهريب بضائع وتجاوزات أخرى لا علاقة لها بقضية حمود، في سعي واضح من المدّعي العام لإضعاف مصداقية شهادتها. وأشار المدعي العام إلى عدم إبلاغها عن شهادة الزور التي أدلى بها نشار في المرحلة الأولى من التحقيقات، وأنها لم تبح بذلك إلا بعد أن استجوبها المحققون من مكتب التحقيقات الفيدرالية للمرة الثالثة. وخلصت المحكمة إلى أن ما أدلت به فينوكيو لا يمكن الاستناد إليه لاستبعاد شهادة نشار لأنها لا تتمتع بالمصداقية.

> **اعتذر نشار من حمود قائلاً إنه يشعر بالذنب بسبب شهادته الكاذبة**
>
> **نشار يعترف لحمود في السجن**

في عام 2011، التقى محمد حمود بهيثم نشار في سجن أتلانتا ووقع شجار بينهما. سأل نشار لاحقاً حمود عن مدة عقوبته فشكره حمود على الحكم عليه لمدة 155 سنة في السجن بعد أن استندت المحكمة إلى إفادته الكاذبة. فغضب نشار وأجاب بصوت عالٍ: «أنتم الشيعة الذين عملتم ضدي، وكنتم ستشهدون ضدي، فقررت: اتغداكم قبل أن تتعشوني. فلتبكِ أمك بدل أن تبكي أمي». واعترف نشار لحمود بصراحة بأنه كذّب محاولاً تبرير كذبه بطرق مختلفة. وفي اليوم التالي، عندما فُتحت أبواب غرف السجن لتناول الإفطار، اعتذر نشار من حمود وقال إنه يشعر بالذنب بسبب شهادته الكاذبة.

خلال الأيام التي تلت ذلك، تحدّث نشار وحمود طويلاً. وطلب الأخير من نشار أن ينتقل إلى غرفته في السجن، فتبادلوا الأحاديث حول تقاليد عائلة نشار في الشمال وعن حياته في لبنان وأميركا وفي السجن. وفي ما يتعلق بالقضية قال نشار إنه يعتقد أن كل الشيعة في شارلوت أدلوا بتصريحات ضده وأخبره الناس أن حمود يكرهه وكان مقتنعاً بأنه سيشهد ضده. كما اعترف نشار لحمود بأنه كذّب عندما نفى وجود اتفاق مع الحكومة للإدلاء بشهادته ضد حمود. وقال إن المدّعي العام لم يعده بالحرية فحسب، بل بعدم ترحيله. كما وعده بمنحه «تأشيرة تصريح» تسمح له بالبقاء في الولايات المتحدة.

تضخيم العقوبة

ارتكبت المحكمة الابتدائية عدداً من الأخطاء القانونية والدستورية في قضية محمد حمود، أهمّها:

أ- قبول شهادة عميل لمكتب التحقيقات الفيدرالي غير مؤهّل كخبير في قضايا «الإرهاب».

ب- الحد من نطاق الاستجواب بهدف حماية «أسرار» الحكومة رغم أن المدّعي العام لم يبد اعتراضاً على الأسئلة ولم تكن هناك مصلحة مشروعة للحكومة في عدم الكشف عن المعلومات.

ج- إدانة حمود استناداً إلى قرائن لا قيمة ثبوتية لها وهو ما يشكل انتهاكاً للقوانين الجنائية ذات الصلة ولحقوق حمود الدستورية.

د- تضخيم العقوبة من خلال تحديدها بداية بالسجن لمدة 155 سنة.

(صف الويب)

«حقائق» لا تستند إلى أي دليل

يتضمّن سلوك النيابة العامة الفيدرالية الأميركية المخالف للقانون والأصول بحق محمد حمود:

1. استنادها إلى شهادة زور أثناء المحاكمة وعند إصدار الحكم، وتشديدها على مصداقية شهود المدّعي العام من دون التأكد منها.
2. عدم الكشف عن معلومات تتعلق بالشهود الرئيسيين الذين أدلوا بشهاداتهم أمام المحكمة.
3. عرض ومناقشة ما اعتُبر «حقائق» لا تستند إلى أي دليل في المحكمة.
4. حث هيئة المحلفين بشكل غير لائق على إدانة حمود.
5. في أول محاكمة جنائية بتهمة الدعم المادي لمنظمة إرهابية بعد 11 سبتمبر 2001، جرى تكرار المناشدات لعواطف هيئة المحلّفين ووطنيّتها في محاولة لتحريضهم على الإدانة.
6. أدلت الحكومة بتصريحات متكررة للصحافة أثناء المحاكمة بسبب اعتراضات الدفاع على تأجيج الجمهور.
7. قال المدّعي العام، كينيث بيل، لمؤلّفي كتاب «البرق من لبنان» (باربارا نيومان وتوم دياز، 2006): «كنت أعرف أن هذه كانت قضية العمر... لقد كانت بمثابة صانع مهنة» (الصفحة 260). لكن بدا واضحاً أن الطموح الشخصي كان الدافع الأساسي للنيابة العامة.

محامٍ في خدمة الادّعاء؟

كان المحامي الذي كُلف بالدفاع عن حقوق محمد حمود قد تخرّج حديثاً في كلية الحقوق وقد ارتكب العديد من الأخطاء بسبب ضيق خبرته، وقد شملت هذه الأخطاء، على سبيل المثال لا الحصر، ما يلي:

أ. عدم تمثيل حمود بالشكل المناسب أمام المحكمة.
ب. الفشل في تثقيف نفسه وتوسيع معرفته وتشخيصه للأدلة.
ج. عدم التواصل مع الحكومة بشأن التعاون.
د. - عدم الاعتراض على العديد من حالات سوء سلوك النيابة العامة، ما أدّى إلى تفاقم تلك المشكلة.
هـ. الفشل في تأمين شاهد خبير في قضايا «الإرهاب».
و. الفشل في استجواب الشهود بشأن العناصر الأساسية لقضية المدّعي العام والتناقضات في شهاداتهم.
ز. الفشل في تقديم طلب شطب شهادة المدعو ماثيو ليفيت التي سبقت شهادة سعيد حرب، بعد أن أدلى حرب بشهادته على أساس أن شهادة ليفيت ميّزت شهادة حرب بشكل زائف.
ح. عدم إعداد شهود الدفاع.
ط. عدم الاعتراض على التصريحات المتكررة غير المدعومة بأن حمود كان يعرض أشرطة الفيديو عن «حزب الله».
ي. عدم الاعتراض على كمية كبيرة من المزاعم غير الموثّقة والمعلومات المضلّلة وغير الدقيقة التي عرضها المدّعي العام في المحكمة.
ك. عدم الاستعانة بمتخصّص لغوي لشرح العامية والطعن في دقة الترجمات الحكومية الأميركية.

(خاص الفوس)

قضية

حيكت روايات كثيرة خلال 45 عاماً حول مصير الإمام موسى الصدر ورفيقيه، الشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين، تضمّنت شهادات وادعاءات كاذبة وكشفاً غير مكتمل لخيوط مؤامرة دولية تقف وراء خطفهم. لماذا لم تجد حتى اليوم هذه القضية طريقها إلى العدالة؟ يجيب مقرر لجنة المتابعة الرسمية لقضية الإمام الصدر القاضي حسن الشامي على هذا السؤال، موضحاً المسار القضائي اللبناني والدولي للقضية منذ الاختطاف وحتى اليوم، كاشفاً عن مستجدات في الملف بدأت منذ حوالي اسبوعين مع توجيه المدعي العام الأول الليبي ووزارة العدل الليبية كتابين منفصلين إلى لبنان من أجل تعزيز التعاون القضائي بينهما

45 عاماً على خطف الإمام موسى الصدر ورفيقيه

روايات التصفية الفورية و تجافي الحقيقة

فاطمة خشاب درويش

لا يُخفي القاضي حسن الشامي أن وجود هنيبعل القذافي في السجون اللبنانية هو الذي دفع المدعي العام الليبي الصديق الصور، قبل نحو أسبوعين، إلى إرسال كتاب إلى السلطات اللبنانية (حصلت «القوس» على نسخة منه)، يطلب فيه التعاون القضائي من السلطات اللبنانية مع السلطات الليبية في ملف قضية الإمام الصدر ورفيقيه الوطنية في ليبيا الذي وجهته إلى لبنان الشهر المنصرم، لأنها حصرت التعاون فيه بقضية هنيبعل القذافي، معتبراً أن «لهجة الكتاب غير مقبولة وقد جرى الرد عليه بالمناسب».

ويتابع: «تجاهل وزارة العدل الليبية قضية الإمام الصدر ورفيقيه ومذكرة التفاهم بين لبنان وليبيا، بدل على خفة في التعاطي، وهذا الأمر مرفوض وغير مقبول».

القذافي الابن ليس رهينة

في كانون الأول 2015، اختطف هنيبعل القذافي نجل معمر القذافي في سوريا، وأطلق سراحه بعد أيام. استمع بعدها قاضي التحقيق العدلي بقضية «إخفاء الإمام موسى الصدر ورفيقيه» زاهر حمادة إلى القذافي الابن بصفته «شاهداً»، ثم يكتب المدعي العام الليبي، فتارة يطالب باسترداد هنيبعل القذافي كونه مجرماً وملاحقاً بجرائم عديدة مستنداً إلى تقرير من 61 صفحة معزز بالمستندات التي استلمها القاضي الشامي بنفسه، وتارة أخرى نحو أسبوعين، إلى إرسال كتاب تعدّ السلطات الليبية القذافي «طفلاً بريئاً» لا يعرف شيئاً. فكيف يمكن للسلطة ذاتها أن تتقلّب بموقفها حيال الشخص نفسه.

في المقابل، ينتقد الشامي مضمون كتاب وزارة العدل في حكومة الوحدة الوطنية في ليبيا الذي وجهته إلى لبنان الشهر المنصرم، لأنها حصرت التعاون فيه بقضية هنيبعل القذافي، معتبراً أن «لهجة الكتاب غير مقبولة وقد جرى الرد عليه بالمناسب».

ويتابع: «تجاهل وزارة العدل الليبية قضية الإمام الصدر ورفيقيه ومذكرة التفاهم بين لبنان وليبيا، بدل على خفة في التعاطي، وهذا الأمر مرفوض وغير مقبول».

القذافي الابن ليس رهينة

في كانون الأول 2015، اختطف هنيبعل القذافي نجل معمر القذافي في سوريا، وأطلق سراحه بعد أيام. استمع بعدها قاضي التحقيق العدلي بقضية «إخفاء الإمام موسى الصدر ورفيقيه» زاهر حمادة إلى القذافي الابن بصفته «شاهداً»، ثم أصدر حمادة مذكرة توقيف وجاهية بحقه، بعدما وجّه إليه تهمة «كتم معلومات» حول القضية، استجوبه بعدها بصفة مدعى عليه في هذا الجرم.

«بالتأكيد نحن لا ندّعي أن هنيبعل هو من خطف الإمام الصدر ورفيقيه، هذه كذبة. هنيبعل مدعى عليه بجرم

> **الشامي: هنيبعل القذافي ليس رهينة ووجوده ليس من باب الانتقام**

التدخل في الخطف المستمر وعقوبته المؤبد، عدا عن كتم معلومات في قضية الإمام والتي تعدّ جناية وليست جنحة» يقول القاضي الشامي كاشفاً أن «هنيبعل وخلال التحقيق معه قال إن الإمام الصدر كان في سجن جنزور، وهذه معلومة كانت لدينا ولم يجر التداول فيها إعلامياً، وقال أيضاً خلال التحقيق إنه يملك معلومات في قضية الإمام لن يدلي بها إلا عندما يصبح خارج لبنان».

وحول تجاوز المهل القانونية لتوقيف هنيبعل القذافي، يؤكد الشامي أن «هنيبعل يخضع للقانون ويحاكم وفق قانون أصول المحاكمات الجزائية، وحالته لا تسري عليها المادة 108 منه لأنه ملاحق بجنايتين، والمحقق العدلي ليس لديه مهل قانونية، بل تبليغات يجريها، وهي لم تكتمل بعد ليُصدر قراره الظني، فهناك أشخاص في ليبيا يفترض تبليغهم، وعندما تنتهي الإجراءات الشكلية يصدر القرار بحق هنيبعل». ويضيف: «هنيبعل ليس رهينة ووجوده ليس من باب الانتقام، لا أحد مهتم لشخصه، لسنا في وارد المقايضة مع السلطات الليبية، نحن في وارد تعاون قضائي بين لبنان وليبيا لجلاء الحقيقة وتبيان مصير الإمام موسى الصدر».

وفي ما يتعلق بوضع هنيبعل وحالته الصحية، يقول الشامي: «منذ توقيفه عزل ووكل عشرات المحامين، يستقبل الزوار بشكل يومي، ولا يتدخل أحد به، يستعمل هاتفاً خليوياً في الشهرين الأخيرين على مدار الساعة، ويمتلك رقماً خليوياً خاصاً به. كما أنه يتلقى الرعاية الصحية الشاملة المحروم منها عشرات بل الاف السجناء في السجون اللبنانية، وهو أيضاً يصدر بيانات يهددنا فيها ويشتمنا ويتهمنا من داخل السجن. من يعيش في هذا الوضع هل يكون ضعيفاً ومظلوماً ومكسوراً كما يحاول أن يصوّر نفسه، أم يكون وراءه منظومة عريضة من وسائل إعلام محلية وعربية».

وحول ادعاءات وكلاء هنيبعل القذافي أن هناك من يفاوض، من قبل اللبنانيين، عائلة القذافي لطمس قضية الإمام مقابل المال، يدعو الشامي كل من لديه دليل إلى إبرازه حتى يدخل من يقوم بذلك السجن، ويعرف الرأي العام هويته.

في الوقائع الثابتة

يشير القاضي الشامي إلى وجود وقائع ثابتة في قضية الإمام الصدر ورفيقيه، تكونت نتيجة المتابعة على مدى 45 عاماً منذ أول تقرير صدر عن السلطات الإيطالية وحتى اليوم، وفي مقدمها أن الإمام الصدر ورفيقيه ذهبوا إلى ليبيا في 25 آب 1978 وانتظروا ستة أيام حتى التقوا معمر القذافي في 31 آب 1978 عند الواحدة والنصف ظهراً، كان اللقاء «عاصفاً»، وأمر القذافي مساعديه بعبارة «خذوه».

يشير الشامي إلى أن «الإمام لم يذهب لحضور احتفالات الفاتح من سبتمبر، بل ذهب وفي يده ملفان، الأول له علاقة بإنهاء الحرب الأهلية وإقناع معمر القذافي بالإقلاع عن فكرة تهجير المسيحيين من لبنان، التي كان القذافي يطمح إليها بقوة «فلّوا يا مسيحيين».

ويتابع: «الملف الثاني للإمام هو منع تحويل الجنوب إلى أرض محروقة، نتيجة مقاومة الاستعراض التي كانت تقوم بها بعض الفصائل التابعة لمعمر القذافي وصدام حسين والتابعة لعدد من الدول في لبنان، من خلال حركات إطلاق صواريخ كاتيوشا بطريقة عشوائية، فيرد العدو الصهيوني بحرق كامل الأرض التي أطلق منها الصاروخ».

ويضيف: «اعتمدنا القواعد العلمية المتفق عليها في جرائم الاختفاء القسري، لم ولن نهمل أي معلومة وردت إلينا أو أي خيط من شأنه المساعدة في الوصول إلى الحقيقة، كل الروايات التي تحدثت عن تصفية فورية، وعن رمي الإمام ورفيقيه في الصحراء، غير صحيحة». إذ جرى نقل الإمام الصدر بين سجون عدة، وفقاً للوثائق والمستندات وإفادات عدد من الشهود، منذ عام 1978 وعلى الأقل حتى عام 2000، لم يعرف بعدها ماذا حصل. تواجد في سجن «جنزور» وهي منطقة أمنية في ضواحي طرابلس، في ما يشبه الإقامة الجبرية وعليه حراسة مشددة، ثم نُقل إلى سجن سرّي تابع للمدينة العسكرية في مدينة سبها، وبعدها نقل إلى مكتب «النصر» وهو سجن سرّي سياسي بجانب سجن أبو سليم في طرابلس الغرب، ثم أعيد الإمام إلى سبها.

الشيخ محمد يعقوب

الصحافي عباس بدر الدين

نتائج فحص الحمض النووي

بناء على قرار مجلس الوزراء الرقم 39 تاريخ 23 آب 2011، وقرار وزارة العدل الرقم 3/4785 تاريخ 17 أيلول 2011، شُكّلت لجنة متابعة قضية الإمام موسى الصدر ورفيقيه، وتعيين القاضي الشامي منسقاً قضائياً في اللجنة التي تضم اختصاصيين حقوقيين، ومتخصصين في الأدلة الجنائية، وسفراء، ومستشارة إعلامية.

وبموجب قرار وزير العدل آنذاك أشرف ريفي الصادر بتاريخ 2015/1/22، بات الشامي يتمتّع بكامل الصلاحيات لمتابعة قضية الإمام الصدر ورفيقيه في ليبيا أو أي دولة أخرى وإجراء اللقاءات مع أي شخص أو مرجع ويكون للقاءات والمشاهدات والاستقصاءات التي يقوم بها في هذا الخصوص الصفة الرسمية انطلاقاً من صفته القانونية.

يشرح الشامي حول التحقيقات والمتابعات التي أجراها منذ توليه عمله في اللجنة دون أن ينفي صفة التكتم في قضية بحجم الوطن، مشيراً إلى أن «أهم خطوة كانت أننا وضعنا في اللجنة ثوابت وقواعد عمل علمية بعيدة عن العاطفة».

ساهمت اللجنة في إبرام مذكرة تفاهم بين لبنان وليبيا في 11 آذار 2014 من أجل التعاون في قضية الإمام ورفيقيه، يقول الشامي الذي ذهب إلى ليبيا مرات عدة «تكمن أهمية المذكرة أنها سهّلت دخول اللجنة إلى السجون الليبية التي كان لا يمكن دخولها، كما أنها كرّست ثوابتنا وأدانت نظام القذافي، ووضعت كل الاحتمالات مفتوحة على مصير الإمام ورفيقيه خلافاً لما يزعمه البعض».

ويضيف: «تتبّعت اللجنة كل الخيوط، منذ عام 2012 ونحن نجري فحوصات DNA بشكل رسمي وغير رسمي، قالوا إن هناك جثثاً.. ولإمكانية التعرف على شخص الإمام ورفيقيه من خلال فحص الحمض النووي، قمنا بإجراء هذه الفحوصات وتبيّن أنها لا تعود لهم».

إجراءات أمنية لتضليل التحقيق؟

على صعيد لقاءات المسؤولين الليبيين، يلفت الشامي إلى أنّه قابل أركان النظام البائد، شهوداً ومشتبهاً فيهم في دول عدة من دول العالم، مشيراً إلى أن ذلك «تطلّب ترتيبات معقدة وإجراءات أمنية، إذ كانت المقابلات تحصل بشروطهم وتحت رعاية الدول التي يقيمون فيها، بعد أن تتواصل الأخيرة معنا لترتيب لقاء مع أحد الشهود المهمين في القضية، ليتبيّن بعد لقائه أنه لا يعرف شيئاً».

ويتابع: «في عام 2014، ذهبت وقابلت موسى كوسى، إلا أنه كذّب خلال اللقاء كثيراً، كان يتذرع تارة أنه لا يسمع، وتارة أخرى أنه لا يفهم ما أقول، مع أنني أتحدث باللغة العربية الفصحى، التقيت أيضاً ابن القذافي الساعدي ولكنه لا يعرف شيئاً، أما عبد السلام جلول فلم ندخر جهداً ووسيلة للقائه، حتى من خلال من يريدون المال، ولكن لم نستطع إلى ذلك سبيلاً».

ويلفت الشامي إلى أن «المسؤولين الذين يعدّون ضمن الحلقة المقربة من معمر القذافي المتهم بقضية الإمام هم حالياً إما موقوفين على ذمة التحقيق أو في الإقامة الجبرية في ليبيا، ومنهم: عبد الله السانوسي، وفرج أبو غالية، وعبد الله حجازي، وعبد الله منصور، وأحمد رمضان، ولكنه لم يجرِ التحقيق الجدي معهم».

(من الويب)

شهر، وبعد سقوط معمر القذافي اعترف الشاهد الذي جرى التحقيق معه آنذاك أنه شهد زوراً تحت ضغط النظام الليبي. كتب الإيطاليون في القرار «كان هدفهم إغلاق الدائرة»، للمرة الثانية أكد القرار أن الإمام لم يصعد ورفيقيه الطائرة.

● في عام 2005، حدث تطور مفاجئ وبطلب من السلطات الليبية على إثر زيارة رئيس وزراء إيطاليا برلسكوني إلى طرابلس الغرب، أعاد القضاء الإيطالي، بشكل غامض ومن دون إعلام عوائل المغيّبين، فتح الملف متجاهلاً القرار الصادر عنه عام 1982 والاعتراف الصريح للقذافي بإخفاء السيد موسى الصدر ورفيقيه مكتفياً بإعادة الاستماع إلى شهادة بعض الشهود الذين ثبت كذبهم أمام القضاء في القرار الصادر عن القضاء الإيطالي بتاريخ 1982/7/28. صدر إثر ذلك قرار بتاريخ 2005/11/17 عن قاضية التحقيقات في محكمة روما سيمونيتا داليساندرو بحفظ الملف مجدداً موحية بشكل ملتبس بأن الإمام قد يكون اختفى على الأراضي الإيطالية.

● في كانون الأول 2014، قدّم وكلاء عائلة الإمام الصدر في لبنان وروما طلب إعادة فتح تحقيق مدعم بالأدلة والوثائق التي تؤكد خطأ قرار 2005 وتدعو إلى الرجوع عنه، بناء على تقارير وتحقيقات الجانب اللبناني وإلى مذكرة التفاهم الموقعة بين الدولتين اللبنانية والليبية في 2014/3/11 التي يؤكد فيها الجانب الليبي أن جريمة الخطف حصلت على الأراضي الليبية من قبل نظام معمر القذافي.

● بتاريخ 22 حزيران 2015، قدّم النائب العام في روما مطالعة قضت حرفياً بما يلي: «نتيجة فحص كل الوثائق المجموعة والمضمونة ضمن وثائق المحاكمة... يجب عدم قبول افتراض أن الوفد اللبناني (أي الإمام ورفيقيه) وصلوا إلى مطار روما...».

● بتاريخ 20 تموز 2015، صدر قرار قاضية التحقيق في روما الذي تبنّى ما ورد في المطالبة التي تقدّم بها النائب العام في روما وورد فيه، ما حرفيته: «... بعد انتهاء دكتاتورية العقيد القذافي، قامت الدولة الليبية بمجموعة من التحقيقات مرتبطة بتحقيقات أجريت في لبنان، انتهت إلى تبنّي افتراض أن جريمة الحرمان من الحرية قد تمّت على الأراضي الليبية».

بعد فترة من التلكؤ..

جعلت الحرب الأهلية في لبنان التحقيقات تصطدم بالكثير من العوائق، يقول القاضي الشامي: مشيراً إلى أن القضاء اللبناني لم يقم بواجباته حينها، ولم يُسمح للمحققين العدليين القيام بواجباتهم في التسعينيات، «كان هناك جدار مبني بين لبنان وليبيا، لأن معمر القذافي كان يمنع دخول أي أحد إلى ليبيا لمتابعة قضية الإمام».

وبالعودة إلى القرارات والإجراءات الرسمية التي اتخذت عقب اختطاف الإمام الصدر ورفيقيه، نستذكر أبرزها:

● بتاريخ 1981/2/4 أصدرت الحكومة اللبنانية مرسوماً رقم 3794، عدّت بموجبه إخفاء السيد الصدر ورفيقيه جريمة اعتداء على أمن الدولة الداخلي، وأحالت هذه القضية إلى المجلس العدلي. وسنداً للمرسوم المذكور، أصدر وزير العدل اللبناني قراراً رقم 72 تاريخ 1981/2/6 عيّن بموجبه القاضي طربيه رحمة محققاً عدلياً لهذه القضية. وادعت النيابة العامة التمييزية في القضية بجريمتي الفتنة والحضّ على النزاع بين الطوائف في لبنان.

● بتاريخ 1986/11/18 أصدر القاضي رحمة قراره الظني متضمّناً الأدلة وشهادات الشهود على اختفاء السيد ورفيقيه داخل الأراضي الليبية وعلى أن أشخاصاً آخرين انتحلوا شخصياتهم وزيفوا آثاراً لدخولهم الأراضي الإيطالية. وأن جريمتي خطف السيد الصدر وحجز حريته لا تستهدفانه شخصياً لأنه لم يتبيّن وجود خلافات أو عداوات شخصية له، بل تستهدفان الساحة اللبنانية بغية خضّها وتأجيج الاقتتال الدائر عليها. وانتهى القرار بتأكيد اختصاص القضاء اللبناني للنظر في القضية وإصدار مذكرة تحرّ دائم توصلاً لمعرفة الفاعلين والمحرضين والمتدخلين في الجرائم موضوعها.

وفي هذا السياق، يشير الشامي إلى أنه «جرى تفعيل الإجراءات القضائية بعد فترة من التلكؤ، وتوّجت هذه الإجراءات بقرارين، الأول مطالعة مدعي عام التمييز آنذاك عدنان عضوم في عام 2004 الذي أدان فيها معمر القذافي والنظام الليبي، والثاني كان القرار الظني الذي أصدره المحقق العدلي القاضي المرحوم سميح الحاج في عام 2008، وأدان فيه معمر القذافي وأصدر مذكرات توقيف غيابية بحقه وبحق أركان نظامه».

> **الشامي: لم يُسمح للمحققين العدليين القيام بواجباتهم في التسعينيات**

تأكيد إيطالي بأنه لم يغادر ليبيا

بدأت التحقيقات الإيطالية عقب اختفاء الإمام الصدر مباشرة في أيلول 1978، وشملت عشرات الأشخاص من طاقم الطائرة الإيطالية (رحلة رقم 881) التي انطلقت من طرابلس - ليبيا وتوجهت إلى إيطاليا بتاريخ 31 آب 1978، وطاقم فندق «هوليداي إن» في روما، وطاقم مطار فيوميتشينو في روما. أصدرت السلطات القضائية على مدى 37 عاماً (1978 - 2015) أربعة تقارير رسمية حول قضية اختفاء الإمام الصدر، خلصت إلى أن الإمام ورفيقيه لم يصعدوا الطائرة الإيطالية ولم يغادروا الأراضي الليبية، وفي ما يلي تفاصيل هذه القرارات القضائية:

● بتاريخ 7 حزيران 1979، أصدرت السلطات الإيطالية تقريرها الأول الذي أكد أن الإمام الصدر ورفيقيه لم يصعدوا الطائرة الإيطالية وبالتالي لم يدخلوا إلى روما، فما كان من السلطات الليبية إلا أن اعترضت على القرار رسمياً عند السلطات الإيطالية وطلبت إعادة النظر بالتحقيق.

● بتاريخ 28 كانون الثاني 1982 صدر القرار الإيطالي الثاني الذي أكد القرار الأول، أرسلت روما بعثات قضائية إلى ليبيا ضمّت كبار القضاة في إيطاليا أقاموا في طرابلس لمدة

لماذا لم يكشف مصير الإمام بعد مقتل القذافي؟

في اللحظة الأولى بعد مقتل معمر القذافي، حصلت لجنة متابعة قضية الإمام موسى الصدر ورفيقيه على وعود علنية وكتب رسمية من مسؤولين ليبيين (بعد الثورة)، مصطفى عبد الجليل ومساعديه، على أن تكون قضية الإمام الصدر أولوية وطنية في ليبيا، إلا أنه تبيّن وفقاً للقاضي الشامي «وجود علاقات قربى وصداقة مصالح بين أركان نظام القذافي السابق وأركان النظام الحالي، بالتالي طغت المصالح الشخصية على مصلحة الدولة الليبية وعلى قضية الامام، وحصرت مسؤولية ما جرى بعبد السلام جلود. لكن السؤال الأساسي: ماذا فعل القذافي به عندما كان في موقع المسؤولية، وماذا فعل من هم بالحكم اليوم معه؟ هذا الأمر لا يمكن أن نقبل به».

المختبر الجنائي

التحقيقات الجنائية العلمية
الوصول إلى الحقيقة لا يحتمـل التبسيط

يمكن ان تختلف كلفة التحقيق الجنائي العلمي بشكل كبير اعتمادًا على الظروف المحددة والموارد المطلوبة للقضية. تشمل العوامل التي يمكن ان تؤثر على الكلفة طبيعة القضية وتعقيدها، وعدد الضباط والخبراء المشاركين، ومدة التحقيق والحاجة إلى معدّات او خدمات متخصصة. بشكل عام، يمكن ان تتراوح كلفة التحقيق العلمي بين بضعة آلاف إلى مئات الآلاف من الدولارات، او اكثر. لكن يبقى التدريب المستمر في المباحث العلمية ضروري للحفاظ على الكفاءة الفنية للمحققين، بسبب دورها الاساسي في تقليص تكلفة التحقيق، عبر تزويدهم بالمعرفة والمهارات اللازمة للتعامل مع الادلة بشكل صحيح وتحليلها وتفسيرها، وضمان استخدامهم للادوات والتقنيات، والحفاظ على الدقة والموثوقية في عملهم وتجنّب التحيّزات او تضارب المصالح

جنان الخطيب

(من الويب)

الجرائم المعقدة والاحتيال..

التحقيق في الجرائم المالية المعقدة أو عمليات الاحتيال واسعة النطاق هو أحد أمثلة التحقيق المكلف. تتضمّن هذه الانواع من التحقيقات غالبًا تحليلًا ماليًا مكثّفًا ومراجعة حسابات جنائية وضرورة اتّباع مسار مستندات يمر عبر محطات قضائية عدة. يمكن أن تضاف تكلفة توظيف محاسبين جنائيين متخصصين وخبراء ماليين ومحققين يمتلكون خبرة في هذه المجالات إلى التكلفة الإجمالية بشكل كبير.

كما يمكن أن تتكبّد التحقيقات في الجرائم المنظّمة أو عمليات تهريب المخدرات الكبيرة تكاليف باهظة. وغالبًا ما تكون هذه التحقيقات سرّية وتتطلب معدّات مراقبة، وتنسيق العديد من الأجهزة الأمنية (راجع الصفحة الأخيرة، «العمل معًا للوصول إلى الحقيقة»).

تحديد أتعاب التحقيق

يُنظر عادةً في عوامل عدة لتحديد كلفة التحقيق الجنائي العلمي، منها:

■ **الوحدات أو الخبرات المتخصصة:** قد تتطلب بعض التحقيقات وحدات أو خبرات متخصصة، مثل الأطباء الشرعيين، أو خبراء مسرح الجريمة، أو المتخصصين في العلم الجنائي الرقمي، أو غيرهم من الفنّيين. تعتمد التكلفة على عدد الخبراء الذين يُستعان بهم، ومستوى خبرتهم، ومدة مشاركتهم.

■ **المعدّات والتكنولوجيا المتخصصة:** مثل أدوات الطب الشرعي والتحقيق العلمي، ومصادر الإضاءة الجنائية، ومعدّات جمع الأدلة، ومواد رفع البصمات، وغيرها. في بعض الأحيان، يكون هناك حاجة أيضًا إلى تكنولوجيا متقدمة أو أدوات تحليل البيانات. وتعتمد التكلفة على مدى توفّر المعدّات المحددة والموارد اللازمة، للجهاز المولج بالتحقيق، والحاجة إلى شرائها أو صيانتها.

■ **تحليل المختبر:** اعتمادًا على الأدلّة التي جُمعت، قد يلزم إجراء تحليلات معيّنة في المختبر الجنائي يمكن أن تشمل تحليل الحمض النووي، وتحليل السموم، والاختبارات البالستية، وتحليل ومقارنة البصمات. تعتمد التكلفة على الاختبارات المحددة المطلوبة، وعدد العيّنات، وصعوبة التحليل.

■ **التنقّل:** زيارة مسرح الجريمة أو إجراء مقابلات في مواقع مختلفة أو التعاون مع أجهزة أمنية أخرى.

■ **النفقات العامة والإدارية المختلفة:** مثل حفظ السجلات، والتوثيق، والاتصالات، والطباعة والتدريب وغيرها.

المدة والتعقيد: قد تتطلب التحقيقات الطويلة أو التي تنطوي على ظروف معقدة أو وجود عدة مشتبه فيهم أو أدلة مكثفة المزيد من الموارد وبالتالي تكلفة أعلى.

أنواع التحقيقات الجنائية

بعض الأنواع الشائعة من المعدّات المستخدمة في التحقيقات الجنائية لجرائم القتل:

1. **أدوات تحقيق مسرح الجريمة:** تُستخدم لتسجيل وجمع الأدلة في مسرح الجريمة، وقد تشمل:
- الكاميرات ومعدّات التصوير الفوتوغرافي لالتقاط صور مفصّلة لمسرح الجريمة والأدلة.
- أدوات قياس وتوثيق مسرح الجريمة، مثل أشرطة القياس والمساطر لتسجيل أبعاد وتخطيط مسرح الجريمة.
- مصادر الإضاءة الجنائية، مثل الأضواء فوق البنفسجية (UV)، لتحديد وتوثيق سوائل الجسم، وبصمات الأصابع، أو أي أدلة أثرية أخرى قد لا تكون مرئية في ظروف الإضاءة العادية.
- مجموعات جمع الأدلة، بما في ذلك الماسحات، وأكياس الأدلة، والحاويات، لجمع وحفظ أنواع مختلفة من الأدلة مثل عيّنات الحمض النووي، والألياف، أو مخلّفات إطلاق النار.
- معدّات لفحص علامات الأدوات، لتحليل العلامات والآثار التي تُركت على الأسطح أو الأشياء.
- أدوات رفع البصمات، مساحيق بصمات الأصابع، والفُرَش، والرافعات اللاصقة لجمع وحفظ بصمات الأصابع.
- أدوات تحليل أنماط بقع الدم، مثل مادة اللومينول (Luminol)، لتصوير وتسجيل أنماط بقع الدم في مسرح الجريمة.
- أدوات التحليل البالستي: مؤشرات ليزر لتحليل مسارات المقذوفات.
- مواد الصبّ (casting) لإنشاء قوالب لآثار الأقدام والإطارات وغيرها من العلامات.
- أدوات علم الحشرات الجنائي: أدوات لجمع الحشرات وقوارير لجمع وتحليل الأدلة الحشرية لتحديد وقت الوفاة أو الفاصل الزمني بعد الوفاة.

2. **تجهيزات المختبر الجنائي:**
- مجهر لفحص الأدلة الدقيقة بالتفصيل، مثل الشعر، والألياف، وشظايا الزجاج، وغيرها.
- معدّات تحليل الحمض النووي (DNA Sequencer و Thermal Cyclers).
- أدوات التحليل الكيميائي (Mass Spectrometers و Gas Chromatographs).
- أدوات فحص الأسلحة النارية.
- أدوات التحليل الجنائي الرقمية، مثل البرامج والأجهزة المتخصصة، لاستخراج وتحليل البيانات من أجهزة الكمبيوتر، والأجهزة المحمولة، أو وسائط التخزين الرقمية الأخرى.
- قاعدة بيانات وماسحات ضوئية لبصمات الأصابع، وأنظمة التعرف على الوجه وماسحات قزحية العين، وبرامج التعرف على الصوت.

3. **معدّات الحماية الشخصية.**

لوازم الطب الشرعي

- نقاط مخصصة مصممة لإجراء عمليات التشريح مع طاولات المشرحة مجهزة بأنظمة صرف وارتفاع قابل للتعديل.
- أدوات التشريح وأخذ العيّنات: شفرات، وملقط، ومقص، ومناشير لتقطيع العظام، وقواطع أضلاع لإجراء عمليات تشريح وفحص داخلي.
- أجهزة رقمية لقياس وزن الأعضاء أو العيّنات.
- أجهزة الأشعة السينية، أو CT scanners، أو أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي MRI لفحص الإصابات الداخلية، أو الكسور، أو الأجسام الغريبة.
- أدوات طب الأسنان الشرعي، ومواد تحليل علامات العض لفحص الأسنان.
- معدّات أخذ عيّنات علم السموم: المحاقن، وحاويات جمع البول، أو الماسحات لجمع عيّنات لتحليل علم السموم.
- معدّات الحماية الشخصية: لباس كامل، وقفازات، وأقنعة، ونظارات واقية لحماية العاملين من المخاطر البيولوجية المحتملة وضمان سلامتهم.
- أدوات علم الأنسجة وعلم الأمراض: ميكروتومات (Microtomes) لتقطيع الأنسجة، وشرائح زجاجية مجهرية، ومجهر لفحص عيّنات الأنسجة.

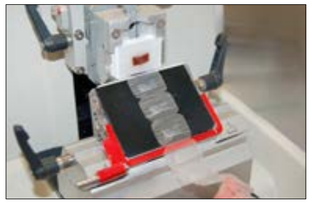

حالة

معنّفة على الخط
ممنوع الاتصال قبل الساعة 5؟

قضايا العنف الأسري، وفقاً للنص وظاهرياً، هي من القضايا التي تستدعي التدخل والتحرك السريعَين من قبل النيابات العامة الاستئنافية. فبموجب نص المادة 11 من قانون «حماية النساء وسائر أفراد الأسرة من العنف الأسري» الرقم 2014\293 يُلزم المحامي العام المكلّف تلقي شكاوى العنف الأسري باتخاذ الحد الأدنى من التدابير لحماية الضحية، كأن يحصل على تعهّد من المشكو منه بعدم التعرض لها، وفي حال وجود خطر محدق يُمنع المشكو منه من دخول البيت الأسري لمدة 48 ساعة قابلة للتمديد مرة واحدة. إن لم تكن هناك وسيلة أخرى لحماية الضحية وأولادها. لكن، هل يطبّق هذا النص فعلاً على أرض الواقع؟

نعرض في ما يلي ما حصل مع إحدى النساء، يوم الجمعة في 25 آب 2023.

ريتا (اسم مستعار)، هي أم لثلاثة أولاد تعيش مع زوج لم يترك «للصلح مطرح» وأختار المخدرات رفيقة له بدلاً من زوجته وأولاده.

لم تعد تحتمل الزوجة بعد 17 سنة من الصبر ومحاولات الدعم والعلاج، التي لم تكتمل نتيجة رفض الزوج متابعتها، ففقدت السيطرة وبدأت بالصراخ والاعتراض على هذا الواقع المرير أمام أطفالها، فلم يكن من الزوج إلا أن طردها من المنزل مهدداً إيّاها بحرمانها من أولادها ومن السكن وكل ما يمكن أن تمتلك حتى ملابسها التي رفض أن تأخذ بعضاً منها.

> **الأب يعاني حالة عصبية مزمنة وقوية نتيجة تعاطيه المخدرات**

انتقلت للبقاء، مؤقتاً في منزل قريبة الزوج، إذ لا سند لها أو معيل، فوالدها متوفى ووالدتها تعيش خارج لبنان، وتواصلت عبر إحدى صديقاتها مع محامية لاستشارتها. طلبت الأخيرة منها أن تتريّث باتخاذ أي موقف تصعيدي كي لا تستفز زوجها الذي بحوزته طفلتيها القاصرتين، وأن تحاول حلّ المشكلة من دون أي مواجهة مباشرة.

إلا أن طلبها بالتروي تبخّر بعد أقل من ساعة على الاتصال، لأن الزوج قرر المجيء إليها لأخذ طفلتها الثالثة الأصغر سناً، التي كانت تبكي فزعاً من كل ما يجري أمامها. هاجم الزوج ريتا وطفلتهما، أثناء ركوبهما سيارة قريبته، وكاد أن يكسر زجاج السيارة على مرأى سكان الشارع الذين تجمّعوا لإيقافه وإبعاده.

ما اضطرّ ريتا للاتصال بالخط الساخن 1745 فأحيلت إلى أقرب مخفر من مكان وقوع التهجّم. دخلت الأم خائفة ومرتبكة إلى المخفر، فكان الجواب الأوّلي لها إنه لا يمكن فتح محضر فوري لأن الزوج لم يضربها. وبعد تواصل المحامية مع المخفر وضّح العنصر الأمني أنه لا يستطيع فتح محضر من دون إشارة المحامي العام الاستئنافي المناوب حالياً، القاضي فرزلي، المكلّف بملفات العنف الأسري، ولا يستطيع الاتصال به قبل الساعة الخامسة عصراً «مهما كانت الأسباب».

حاولت المحامية أن توضح للعنصر الأمني مدى الخطر المزمنة وقوية نتيجة تعاطيه المخدرات، قد تؤدي لارتكابه تصرفاً مؤذياً بحقه وبحق ابنتيه. ولمجرد احتمال وجود خطر على قوى الأمن التحرك فوراً، فهذا هو جوهر قانون حماية النساء وسائر أفراد الأسرة من العنف الأسري.

لنفترض أن رواية الأم تحتمل الشكّ، أو أننا لم نتثبّت من صحّتها بالكامل، على الضابطة العدلية التأكد من سلامة الأولاد أولاً وتأمين الحماية لهم، وخاصة مع ورود معلومة عن حالة الوالد العصبية. لكن ما حصل أن المحامي العام المكلّف بحماية من يتعرض للعنف ورغم تواصل المحامية معه لشرح الحالة، رفض الاستماع إليها ولم يقبل حتى أن تشرح له مدى خطورة الحالة، كما رفض إعطاء الإذن لعنصر قوى الأمن بفتح محضر بالحادث الذي تعرضت له الزوجة. وقال إن عليها تقديم شكوى أمام النيابة العامة الاستئنافية يوم الإثنين 28 آب، أي بعد ثلاثة أيام، من الممكن أن يحصل خلالها أمور كثيرة لا تحمد عقباها، تاركاً ريتا وطفلتها الصغيرة معاً وطفلتين مراهقتين مع الأب في عين العاصفة. من دون أي حماية قانونية وأي قرار حتى بإعادة الأم إلى منزلها، فلم يعد لديها مكان آمن بعد أن رفضت قريبة الزوج استقبالها وابنتها من جديد خوفاً من ردّ فعله!

إن هذا النهج، في ما يتعلق بأسلوب التعاطي مع ملفات العنف الأسري، ليس موحّداً بل يختلف بين قاض وآخر باختلاف نظرة وموقف القاضي من هذه القضايا بشكل عام. وهذا أمر مقلق لأن على القاضي أن يلتزم تطبيق النصوص القانونية وألّا يجعل مواقفه الشخصية تؤثر على اتخاذه أي قرار، وخاصة في قضايا العنف الأسري.

وهذا التريّث أو عدم اتخاذ أي قرار لحماية الضحية التي لجأت للقضاء، في قضية عنف وإن كان محتمل الوقوع، لا مبرر له أمام نهج مغاير تماماً نرى فيه القاضي نفسه يسارع لإصدار مذكرات بحث وتحرٍّ أو إشارة لمداهمة أو توقيف شخص مدعى عليه بجرائم مالية، على سبيل المثال، أو شبهة جريمة جزائية رافضاً إخلاء السبيل بحجة حماية حقوق المدعي المالية.

بينما يُستخف بحماية أرواح أطفال قاصرين وامرأة معنّفة ومدمن ومريض أعصاب قد تكون حياتهم جميعاً مهددة بالخطر. إن مجرد الشك باحتمال تحقّق هذا الخطر، يستدعي استنفاراً كاملاً للأجهزة القضائية والأمنية في دولة من المفترض أنها تحترم الإنسان، وحقوقه هي القاعدة الأولى ولا شيء مقدّماً عليها.

فهل القضاء ملجأ للحماية أو مصدر لتمييع قضايا العنف الأسري؟

(القوس، ألف باء القانون)

(هيلم الموسوي)

العمل معًا للوصول إلى الحقيقة

لا يفترض أن يكـــون أي جهاز أمني هو الأفضل ...لكل جهاز اختصاصه

سياسة حكومية

بعيدًا من:
- الاحكام المسبقة
- الانحياز
- المصالح الطائفية والمذهبية
- التنافس والاستغلال

بناء الثقة

- يجنّب الصراعات والتحدّيات
- يحفّز العمل الجماعي
- يؤدي إلى تكوين فرق عمل مشتركة ووحدات متخصصة لمعالجة انواع معيّنة من الجرائم

الاستعداد لحالات الطوارئ

- الاستجابة السريعة والعمل بكفاءة اكبر
- تحضير خطة مسبقة تساعد كل جهاز امني على معرفة دوره ومسؤولياته
- تامين خطوط اتصال مفتوحة تساعد على التحرك بسرعة وتامين السلامة للجميع

تبادل المعلومات

بشكل افضل مع الحفاظ على السرّية والأمان:
- يقلّل من سوء الفهم
- يساعد في الرد بشكل افضل على الحوادث والجرائم وفق الحاجة/التخصص

Checklist

لكل جهاز تحقيق يعمل بشكل فعّال:
- الكفاءة العلمية والمهنية للعناصر والضباط
- التجهيزات والمعدّات والتقنيات التي يحتاجها للقيام بوظيفته
- التحصين من تاثير الضغوطات والتدخلات السياسية والطائفية

تنظيم برامج

للتدريب ولتكثيف اجتماعات مشتركة:
- تعزز فهم قدرات كل جهاز امني وتحدد الادوار والمسؤوليات
- تساعد في تنسيق الجهود ووضع اليات للتحقيقات المشتركة
- تساعد في تبادل المعلومات ومشاركة افضل الممارسات ومناقشة القضايا الجارية

إعداد جنان الخطيب

القوس

■ فريق التحرير: **عمر نشابة (المسؤول)، وفيق قانصوه، جنان الخطيب، صادق علوية، ألف باء القانون، بشرى زهوة**
■ تصميم فني وإنفوغرافيك: **رامي عليّان**

alqaous | al_qaous | alqaous22 | alqaous | 01/34 99 54
info@alqaous.com | www.alqaous.com